

القسم الثالث

في السودان

- (١) حدود وجبهات السودان
- (٢) توزيع المراكز الحضرية في السودان
- (٣) وجه السودان : دراسة حضارية مقارنة

١ - حدود وجبهات السودان

١ - الحدود الشمالية

هذه الحدود خط مستقيم يتبع خط عرض ٢٢° شمالا من العوينات حتى ساحل البحر الأحمر . وتحدد هذا الخط في اتفاقية ١٨٩٩ - وطوله نحو ١٢٨٠ كم . وككل حد فلكي لا يمكن تفسير اختياره الا بعامل الصدفة التاريخية ، التي جعلته الحد الجنوبي للمناطق التي لم تخلها مصر في أثناء الانسحاب الذي نظمه الانجليز من السودان ، وجاء هذا الخط متعامدا على الظاهرات الطبيعية والبشرية في المنطقة :

١ - يبدأ هذا الخط من منطقة العوينات وبينها وبين النيل نطاق غير معمور تتناثر فيه موارد مائية محدودة ، تعتبر محطات في الطرق التي تعبر الصحراء بين الشمال والجنوب . ومن أشهرها طريق الأربعين الذي يمر في هذا النطاق بواحة سليمة (في السودان) وآبار شب وأبو حسين في مصر ، ويتابع اتجاهه شمالا بعد هذا . وتدخل هذه المنطقة في نطاق اللا معمور السوداني ، حيث لا تتوافر عوامل الاستقرار البشري والحياة . وتنحصر أهميته في حركة القوافل . وكان من قبل طريقا من طرق الهجرات البشرية ، أثر تأثيرا له خطره على السودان غرب النيل .

٢ - فاذا ما انتقلنا شرقا وصلنا الى وادي النيل ، حيث الاتصال الرئيسي بين الشمال والجنوب . والوادي هنا يختلف ضيقا واتساعا . ومن اليسير التمييز بين المعمور النيلي الذي تتركز فيه الحياة وترتفع كثافة السكان ، والنطاق الغربي الى العوينات . فالحياة في القطاع النيلي متصلة بين الشمال والجنوب من النواحي الطبيعية والبشرية . والفروق المحلية محدودة ، تقتصر على بعض نواحي اللغة وهي فروق آخذة في

الاندثار مع انتشار التعليم والاقبال على اللغة العربية . وخط الحدود يخترق وطن الجماعات النوبية وهى بهذا موزعة بين مصر والسودان فى منطقة الحدود .

٣ - والى الشرق ترتفع جبال البحر الأحمر ، والى شرقها تنحدر الجبال فى سرعة الى سهل ساحلى ضيق ينتهى بنا الى البحر . فى هذا الجزء الشرقى نطاق قليل الكثافة من جماعات البجاة الذين ينتشرون فوق رقعة تشمل الأجزاء الجنوبية من صحراء مصر الشرقية والسودان الشرقى كله والأطراف الشمالية من ارتريا . والقبائل الرعوية لا تعرف الاستقرار الكامل فى مكان واحد ، ولا تتقيد فى تجوالها بالحدود المصطنعة التى لا تستند الى مقومات من عناصر البيئة . والخط الفلكى ٢٢ شمالا - يشطر هذه القبائل دون اعتبار لنظم حياتها .

ومن أجل ذلك عجز هذا الحد الفلكى عن أن يؤدى وظيفته التى أرادتها له اتفاقية ١٨٩٩ . وجاءت ظاهرة ازدواج الحدود بين مصر والسودان . وأصبح للسودان ، فى عهد الحكم الثنائى ، حدود سياسية وأخرى ادارية فى المناطق الآتية (١) :

١ - منطقة حلفا : وقد رأينا كيف نصت ديباجة الاتفاقية على ضمها الى السودان . ومدينة حلفا نفسها تقع على خط عرض ٥٥ ° ٢١ . وتدخل حاليا فى نطاق بحيرة ناصر أمام السد العالى التى أخذت تحدث تغييرا جذريا فى جغرافية هذا القطاع النيلى . من أول مظاهره عمليات التهجير التى اتجهت فى مصر الى النوبة الجديدة (منطقة كوم امبو) . وفى السودان الى منطقة خشم القربة على العظيرة .. أما الصورة السابقة لهذه المنطقة والتى وضعت على أساسها اتفاقية ١٨٩٩ فأهم ملامحها الجغرافية هى :

أرض زراعية محدودة المساحة - وبخاصة جنوب المدينة - مما أدى

(١) انظر محمد متولى : الجغرافيا السياسية ، ط المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة . وقد درس الحدود الادارية بين مصر والسودان فى الباب الخامس من ص ١٠٤ الى ١١٢ .

الى تركيز معظم السكان في الأراضي الزراعية التي تقع شمالها ، حيث مجموعة من القرى الصغيرة مثل فرس ودييره . وجاء تعديل خط الحدود ليضم الى السودان منطقة طولها ٢٥ كم من حلفا الى ادندان على شاطئ النيل الشرقى ويتجه غربا الى شمال قرية فرس على الضفة المقابلة ، وبهذه المنطقة نحو ٤٠٠٠ فدان من الأرض الزراعية ونحو ٨٢٠٠٠ نخلة ، وعدد سكانها نحو ١٣٠٠٠ ، وقراها عشر . وتم هذا الضم في عام ١٨٩٩ .

٢ - منطقة جبل علبة : وتقع في الركن الجنوبي الشرقى من ج . ع . م وهي جبلية مرتفعة تتكون من صخور قديمة ، وتغنيها حياة نباتية غنية نسبيا ، تتوافر فيها موارد مياه تجعلها اقلما جغرافيا متميزا عن بقية الصحراء الفقيرة التي تنتهي الى النيل . وتسكن الجبل جماعات من البشاريين وهم قبيلة من البجاة الذين ينتشرون في الصحراء الشرقية ابتداء من خط عرض قنا حيث يحيا العباددة ، يليهم جنوبا البشاريون في جبل علبة والسودان الشرقى ، ثم الأمارأر والهدندوه والبنى عامر . وهذه القبيلة الأخيرة يعيش ثلثها في السودان والثلثان في ارتريا . مثل هذا يقال أيضا عن قبيلة الشكرية التي تعيش في سهل البطانة بين العطرة والنيل الأزرق ، فبعض أقسامها يعيش في الأجزاء الغربية من ارتريا .

ولمنطقة جبل علبة أهمية اقتصادية . فهي قطاع من الصحراء الشرقية - في كل من مصر والسودان - حيث موارد من الثروة المعدنية ، لا تزال دراساتها بحاجة الى استكمال . وتزداد امكانيات الاستفادة منها مع تطور المواصلات وطرق البحث العلمى .

وعلى السهل الذى يشرف عليه الجبل قام مرفأ حلايب وتربطه طرق برية صالحة للسيارات مع بور سودان جنوبا والقصير شمالا . وفي قلب الجبل قامت مدينة جببت المعادن حيث مناجم الذهب القديمة ، وهذه غير جببت أخرى على الخط الحديدى الذى يربط بين بورسودان وهيا..

وقد تم ضم هذا الجزء - جبل عليه - اداريا ، من مصر الى

السودان في عام ١٩٠٢ . وهو مثلث قاعدته خط عرض ٢٢ شمالا .. وله ضلعان متساويان تقريبا طول كل منهما نحو ١٨٠ كيلو متر .. ورأسه عند بئر الشلاتين على ساحل البحر الأحمر . وتقدر مساحته بنحو ١٢٥٠٠ كيلو متر مربع . وكانت حجة بريطانيا في الضم أن يخضع البشاريون جميعا لادارة واحدة بدلا من توزيعهم اداريا بين مصر والسودان .

٣ - منطقة جبل بارتازوجا : وهي منطقة جبلية فقيرة في نحو منتصف المسافة بين جبل علبه والنيل على شكل مثلث قاعدته خط عرض ٢٢ شمالا ورأسه الى الجنوب ومساحته نحو ٦٠٠ كيلو متر مربعا وقد رأت بريطانيا ضمه الى مصر ليصبح العباودة الذين يسكنونها تحت الادارة المصرية . وتم هذا أيضا عام ١٩٠٢ ..

وواضح أن حجة الادارة القبلية لا تقوم مبررا كافيا لهذه الاجراءات لأنه حتى بعد التعديل ، ظلت جماعات من البشاريين تحيا شمال خط الحدود .. هذا الى أن الجزء المقتطع من مصر ، تبلغ مساحته أضعاف الجيب الصغير الذى ضم اليها ، ويزداد الفارق وضوحا اذا ما قارنا بين الموقع البحرى والمميزات الجغرافية لمنطقة جبل علبه من ناحية وبين قعر منطقة بارتازوجا وموقعها الداخلى .

وأسلوب جميع القبائل في ظل ادارة واحدة لم تتبعه بريطانيا على سبيل المثال مع قبيلة البنى عامر . فهذه القبيلة كما سبق القول تحيا في كل من الأطراف الجنوبية للحدود السودانية الشرقية وفي ارتريا . حتى أن الأسرة الواحدة تحيا بعض أقسامها في مديرية كسلا في السودان الشرقى ، والأقسام الأخرى في المديرية الغربية من ارتريا . وفي نظم المرور عبر هذه الحدود تراعى الدولتان هذه الروابط . ويكتفى فيها بالتصريحات المحلية التى تصدرها المديريات في مناطق الحدود هناك ، دون حاجة الى الرجوع الى السلطة المركزية فى العاصمة . ولم تحاول بريطانيا بدعوى وحدة الادارة القبلية أن تنادى بضم مناطق البنى عامر

والشكرية الى السودان ، وكانت هذه المناطق وقتئذ تحت السيطرة الإيطالية .

الذى نستطيع أن نخرج به من هذا العرض أن الفرق بين منطقتى علة والمديرية الغربية فى ارتريا - ومن وجهة النظر البريطانية - كان راجعا - وقتئذ - الى موافقها من مصر وايطاليا ، حيث تستطيع بريطانيا أن تتحكم فى الدولة الأولى ، لافى الثانية ؛ فطبقت مبدأ الاقتطاع فى الحدود الشمالية . واكتفت بتنظيم المرور عبر الحدود الشرقية مع ايطاليا المسيطرة وقتئذ على ارتريا . وكان لها موقف مختلف فى تخطيط الحدود بين السودان وأثيوبيا كما سنرى .

٢ - الحدود الغربية

وتقصد بها الجزء الممتد من جبل العوينات شمالا حتى التقاء الحدود الغربية بحدود الكونغو .. وامتدادها نحو ٢٢٠٠ كيلو متر .

١ - ويتبع الجزء الشمالى من الحدود الغربية ، بين خطى عرض ٢٢،٢٠ شمالا ، خط طول ٢٥° شرقا . وتخطيط هذا الجزء حديث يرجع الى عام ١٩٣٤ عندما كانت ايطاليا تحتل ليبيا .. ولها مطامعها فى تكوين امبراطورية افريقية . وتحت الضغط البريطانى وافقت مصر - أو اضطرت الى الموافقة - على نقل خط الحدود الغربى درجة طولية واحدة فأصبح يتبع خط طول ٢٥ شرقا بعد أن كان يتبع خط طول ٢٤ شرقا . وأعدت بهذا تقسيم موارد المياه فى منطقة العوينات بين مصر والسودان وليبيا . وخرجت ايطاليا بالنصيب الأكبر من هذه الآبار . وواضح من هذا التعديل انه كان هنا أولا لمصلحة ايطاليا حتى تصير لها نقطة ارتكاز وآبار فى الركن الجنوبى الشرقى من ليبيا ، فضلا عما فى نقل خط الحدود من ضم واحة جغبوب وجزء من منخفض سيوة الى ليبيا - وهى - اذا لم تكن فى يد صديقة - يمكن أن تهدد منطقتى سيوة فى صحرائنا الغربية .

الحد اذن في هذا القطاع فلكى في موضعيه الأول والثانى ، وان كان التعديل لهدف استراتيجى ، على حساب كل من مصر والسودان ، لمصلحة ايطاليا وقتتذ ، وكانت تحتل ليبيا .

الحد السياسى يتبع بعد هذا خط طول ٢٥° شرقا مرة أخرى أى أنه يأخذ اتجاهها غربيا عند خط عرض ٢٠° شمالا . مسافة قدرها درجة طولية واحدة ، ثم يتجه بعد هذا الى الجنوب ..

٢ - ما وراء ذلك جنوبا يقع في قلب المعبر الافريقى . وهو هنا النطاق الرعوى الذى يمتد عبر القارة من أقصى الغرب حتى المرتفعات الأثيوبية . وليس من اليسير اختيار خط حدود له ركيزة جغرافية قوية . فالتشابه في أنماط الحياة هنا واضح على طول النطاق . والتحركات البشرية بين الغرب والشرق ، بل وبين الشمال والجنوب لا تنقطع . والامتداد الرأسى في الوحدات السياسية من الصحراء الى المراعى ثم الى الغابات ، يصاحبه اختلاف وتنوع في البيئة الطبيعية ، وهو اختلاف يمكن أن يؤدي الى تكامل وتنوع يعزز الوحدة ولا ينقضها .

ففى السودان ارتباط قوى رأسى تشله حركات الهجرة الفصلية وتبادل عروض التجارة بين مناطق الرعاة والزراع ، ومن يجمعون بين الرعى والزراعة . ثم هناك تشابه على جانبى الحدود الغربية . والتاريخ الحضارى لهذا الجزء متصل وان كان التأثير العربى فى السودان وادى النيل أعمق - نسبيا - منه فى الغرب ، ويرجع ذلك الى عاملين :

أولهما : النيل باعتباره أقوى وسيلة للاتصال فى افريقية عبر الصحراء . ويمثل محورا حضاريا ، متعامدا على النطاقات النباتية فى افريقية شمال الصحراء ، ويربط بينها فى نفس الوقت .

والثانى : امتداد اليابس فى شرق القارة الى ما وراء خط الاستواء جنوبا ، بينما الغرب ينتهى دون خط الاستواء . وارتبط بهذا تعدد المداخل الحضارية العربية ، التى يمكن أن يتفاعل معها السودان وادى

النيل ، فضلا عن وقوعه في طريق الحج الذي يسلكه مسلمو غرب افريقية .

ومع أن الحد السياسي الغربي في هذا القطاع يتبع الفاصل المائى بين النيل ومجموعة شارى والكونغو ، الا أن هذا الالتزام ليس كاملا . ومن أوضح الأمثلة على ذلك منطقة جبل مرة في دارفور ، حيث الفاصل المائى بين الروافد والاخوار المنحدرة الى كل من مجموعتى النيل وشارى ، وأهمها وادى عزوم ، ويتجه نحو الجنوب الغربى عابرا الحدود السياسية الى تشاد .

٣ - والتزام الحدود السياسية الفاصل المائى بين النيل والكونغو يبدو فى القطاع الجنوبى من الحدود الغربية فيما بين خطى عرض ١٠ ، ٥ شمالا . وهذا النطاق أقل سكانا من النطاق الرعوى السابق . وان كانت القبائل فى هذا الجزء لا تلتزم - ولا تستطيع أن تلتزم - الحدود السياسية .

وإذا كان التقيد بالفواصل المائية فى هذا الجزء يعين على توقيع الحد السياسى ، الا أنه عمليا ليس عميق الدلالة من الناحية البشرية . فليست الأنهار هنا ظاهرة فصل جغرافى ، تقيد بها القبائل فى تحركاتها . فكثيرا ما تعبر القبائل الحدود فى تجوالها بحثا عن المرعى . والمنطقة بهذا نسيج حضارى تتجه خيوطه بين الشمال والجنوب ، وبين الشرق والغرب عابرة خط الحدود ، بحيث تقلل من القيمة الحقيقية للحد السياسى ، وتدعو الى مزيد من التعاون بين الوحدات السياسية المتجاورة .

وقد أصبح هذا الباب الغربى المصدر الرئيسى لدماء وافدة الى السودان . ومن الصعب التحكم فى حركة التيار البشرى المتجه من الغرب الى الشرق ، فى هدفه الرئيسى أداء لفريضة الحج ؛ وأهدافه الفرعية ، بحثا عن مجالات أوسع للعمل الزراعى فى السودان وادى النيل . ولنا عودة الى هذا الموضوع .

٣ - الحدود الجنوبية

يشارك السودان من الجنوب الكونغو كينشاسا في جبهة طولها نحو ٥٠٠ كيلو متر ، وأوغندا في جبهة طولها نحو ٤٠٠ كيلو متر ، وكينيا في الطرف الشرقي في جبهة طولها نحو ٢٣٥ كيلو متر . وبهذا يصل طول هذه الحدود الى ما يقرب من ١١٥٠ كيلو متر .

١ - ويتبع الجزء الغربي الفاصل المائى بين النيل والكونغو ومتوسط ارتفاعه نحو ٨٠٠ متر ، وان زاد في بعض الأجزاء عن الألف . وترجع أهميته - الى حد بعيد - الى وضعه المائى (الهيدروجرافى) . أما اذا نظرنا اليه من الناحية البشرية فسنجد شعبا كالزاندى مثلا ، تحيا قبائله في كل من السودان والكونغو كينشاسا وافريقية الوسطى . وتشاهد هذه المنطقة تطورا اقتصاديا من أبرز مظاهره مشروع الزاندى لانتاج القطن فى الجزء السودانى من وطن شعب الزاندى مع غلات أخرى وتصنيع محلى لبعض انتاج المنطقة .

٢ - اما الجزء الأوسط فكانت تسوية الحدود فيه - وقتئذ - على حساب كل من مصر والسودان (١) واستطاعت بريطانيا فى أثناء الثورة المهدية ، أن تجبر أمين باشا حاكم المديرية الاستوائية باسم مصر على اخلاء مديريةية خط الاستواء . وانسحب مع ستانلى فى عام ١٨٨٩ . وأرسلت بريطانيا حملة بقيادة لوجارد فى سنة ١٨٩٣ . واحتلت أوغندا متذرة بالصراع الدينى بين البروتستانت والكاثوليك ، وبذلك وقعت منابع النيل الاستوائية تحت السيطرة الاستعمارية . والحدود هنا تعبر النيل عند خط عرض ٣ر٥ شمالا مارة فى أحد مواطن القبائل النيلية ، وهى الموطن الاوسط ، الذى يمتد من نمولى الى بحيرة كيوجا ، والى شماله الوطن الأكبر لهذه القبائل بين خطى عرض ٥٩ ، ١٢ شمالا فى

(١) على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى اعالى النيل ص ١٢٦ - ١٥٨ ط . الانجلو

- القاهرة ١٩٥٨ .

جنوب السودان . ولهذه القبائل وطن ثالث يقع الى جنوب الركن الشمالي الشرقى لبحيرة فكتوريا . ومن ناحية أخرى تحيا الجماعات النيلية الحامية - أو الشبيهة بها - كاللاتوكو والبارى في السودان ، بينما أكبر أوطانها في هضبة شرق أفريقية - فالحد على هذا الأساس ليست له الا دلالاته السياسية . واذا كان من الممكن التمييز بعامته بين السهول المنخفضة في أرض السدود ، وهى التى تقع الى شمال الحدود السياسية ، والهضاب الواقعة الى جنوبها في أوغندا ، الا أن هذا الانتقال لا يمثل عقبة لها خطرهما في حركة وحياة القبائل في منطقة الانتقال .

٣ - ولقد كانت الحدود المشتركة بين السودان وأوغندا تمتد حتى بحيرة رودلف ، دون أن تدع بين السودان وكينيا أية صلة مباشرة . ولكن حدود هذه المنطقة تعرضت للتعديل في عام ١٩٢٦ بضم مديرية رودلف (وتقع بين حافة تركانا وبحيرة رودلف) الى كينيا ، وأصبح الحد بين أوغندا وكينيا يتبع الفاصل المائى بين الانهار المنحدرة الى بحيرة رودلف والمنحدرة نحو النيل ، فهو بهذا يلتزم ظاهرة طبيعية ، بينما يبدو في وضوح أن خط الحدود بين السودان وكينيا من رودلف غربا ليس الا خطأ هندسيا مستقيما ، لا يتقيد بأية ظاهرة طبيعية أو بشرية .

وصحب تخطيط الحدود الجنوبية نزاع سياسى بين السودان وبلجيكا . فقد ادعت بلجيكا الحق في احتلال منطقة من بحر الغزال ومنطقة اللادو والرجاف على النيل . وبعد مفاوضات بين الطرفين تم الاتفاق على أن تظل منطقة بحر الغزال بكاملها جزءا من السودان ، وأن تؤجر منطقة اللادو للكونغو لضرورتها في الملاحة النهرية ، على أن يرتبط أمد الايجار بحياة الملك نفسه ، وبعدها تعود لحكومة السودان . ولم تكن بريطانيا تسمح - وقتئذ - لأية دولة أوربية أن تعترض طريق القاهرة - الكاب ، ولهذا رحبت بالايجار المؤقت ولم ترض بالاحتلال الدائم .

أما الحدود مع أوغندا فقد تم تخطيطها دون ائارة نزاع (١) ، فقد كانت بريطانيا عمليا - مسيطرة على كل من الطرفين .

٤ - الحدود الشرقية

تمتد هذه الحدود من خط عرض ٥ر٤ شمالا عن الطرف الشمالي لبحيرة رودلف الى خط عرض ١٨ شمالا عند رأس اكسار على البحر الأحمر ، وتتعامد على المجارى المائية الرئيسية المنحدرة من المرتفعات الشرقية السوبات في الجنوب ثم النيل الأزرق والعظيرة ، والى شمالها الاخوار الداخلية كالكاش وبركة .

فمن الناحية المائية هناك اتصال قوى بين النظام النهري في كل من أثيوبيا والسودان . ومن ناحية التضاريس لا نستطيع القول بأن الحدود تميز تميزا كاملا بين الجبال في أثيوبيا والسهول في السودان : فهناك منطقة سهلية واسعة في حوض السوبات الأوسط مقطعة من سهول السودان وتتبع اثيوبيا سياسيا .

وتلتزم الحدود - في طرفها الجنوبي - مجرى نهر كيبش الذى يصب في بحيرة رودلف ، ثم تنتقل الى المجرى الأعلى لنهر كُوبو حتى التقائه بالبيور ، ثم تتبع نهر البيور مخلفة غربها منطقة مستنقعات ، وتعود بعد هذا فتتحرف شرقا متتبعه نهر بارو ، ثم تتجه شمالا وتتحرف شيئا فشيئا نحو الشمال الشرقى ، حتى اذا ما وصلت الى السهل الساحلى تعامدت عليه متجهة الى البحر .

ولعل الواقع التاريخى لهذه الحدود يلقى ضوءا على مشكلاتها : فمنطقة الحدود بين السودان واثيوبيا لا يمكن أن تقارنها بالجزء الغربى المقابل من حدود السودان . ذلك لأنها - أى الشرقية - منطقة معمورة لها من ظروف البيئة الطبيعية ما يرغب فيها السكان . واذا كان

(١) مكى شبكة : السودان عبر القرون ص ٤٤٤ ط . دار الثقافة . بيروت - ١٩٦٥

بعض السكان في هذه الأجزاء يحترفون الرعى فطبيعته هنا تختلف
— الى حد كبير — عن المناطق الجافة في الغرب بين النطاق الرعوي
والصحراء في الشمال . فليس من الغريب — بل لعله من الطبيعي — أن
تكون هذه المنطقة مجال التقاء سلمى أو صراع مسلح بين الهضبة
والسهل . وجانب كبير من تاريخ هذه الأرض يمكن اختصاره في هذه
المعادلة : التفاعل بين الجبل والسهل .

وشاهد القرن التاسع عشر تطورا في هذا الصراع ساهمت فيه أكثر
من قوة محلية أو أوربية . وتعاقت الهجوم فيه قوى صاعدة في الهضبة
مقبلة من السهل ، وقوى هابطة الى السهل مقبلة من الهضبة وكانت آخر
مراحل هذا الصراع في القرن التاسع عشر على طول هذه الحدود :
الحروب بين أثيوبيا والثورة المهديّة من ناحية ، وبين أثيوبيا وإيطاليا
في أقصى الشمال من ناحية أخرى . وعندما دخلت القوات الثنائية
السودان رحب بها الامبراطور منليك كجيران أزالوا الحكومة التي
كانت سببا في قتل سلفه . ولكنه — مع هذا — ظل يكسب وقتا ويطاول
في المفاوضات التي جرت بينه وبين هارنجتون — معتمد بريطانيا في
أديس أبابا . هذا بينما ظل الرءوس الأعباش يغيرون من ناحية غمبيلا
على السوبات ، والقلابات على العظيرة ، وفازوغلي على النيل
الأزرق ، ويرفعون الأعلام الحبشية ليضعوا حكومة السودان أمام
الأمر الواقع . وقد تساهل هارنجتون مع الامبراطور في مسألة أرض
بنى شنقول — بين النيل الأزرق والحدود الحالية في الحبشة — وتركها
لاثيوبيا بالرغم من أنها كانت جزءا من السودان ، ولها شهرتها بمعدن
الذهب . وتشبث بها الامبراطور وفي مقابل ذلك منح امتياز استغلال
المنطقة لشركة انجليزية (١) . ويبدو هذا الجزء من الحدود كقوس
لا يتمشى مع الاتجاه العام للحدود نحو الشمال الشرقي . فتسوية
الحدود من هذه الناحية اقتطعت من السودان أرضا ضمتها الى اثيوبيا .

(١) مكى شببكة : نفس المرجع ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

وكانت إيطاليا وقت مفاوضات الحدود تسيطر على ارتريا ، وتمتد حدودها من بلدة أم حجار في الجنوب حتى رأس كسار في الشمال . وكان مسلك حكومة إيطاليا من أول الأمر تعاوناً مع بريطانيا . فقد ظلت إيطاليا محتفظة بكسلا في السودان الشرقي الى أن سلمتها للجيش . وبعد مفاوضات بين بريطانيا وإيطاليا تم الاتفاق على تفويض حاكم السودان العام وحاكم ارتريا في تعيين الحدود . وتم هذا على وفاق وتعاون (١) . ويتخذ الجزء الجنوبي من قمم الجبال المحلية معالم : فهو يتجه من أم حجار الى جبل أبو جمل في غرب القاش ، ثم يتبع بعد هذا الفاصل المائى بين القاش وبركة ، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي الى البحر الأحمر تاركاً دلتا بركة ومجره الأدنى داخل حدود السودان .

وتسكن هذه المنطقة قبائل البجاة . وسبق القول أن البنى عامر مقسمون بين السودان وارتريا ، وكذلك في ارتريا بطون من قبيلة الشكرية التي تسكن أرض البطانة في السودان .. والنزاع لا يكاد ينقطع بين رعاة البنى عامر ورعاة الهدندوة حول الماء والمرعى . وتنظم الحكومتان حركة القبائل والأفراد عبر الحدود السودانية الارترية . وتيار الهجرة في الوقت الحاضر يتجه من ارتريا الى السودان . وان كان السودان لا يرحب بهذا التيار - في بعض الظروف - بل يقاومه لأسباب اقتصادية واجتماعية . وأحيانا يقبل اللاجئين لأسباب انسانية . أما الخلاف بين القبائل الرعوية ، سواء آكانت في ارتريا (المديرية الغربية) أم في السودان الشرقي - فتحل في اجتماع سنوى يحضره نظار القبائل ومشايخها والحكام الاداريون في غابة تمتد في الطرف الشمالى الغربى من دلتا القاش حيث المقر الرئيسى لنظارة قبيلة الهدندوه أكبر قبائل البجاة في شرق النيل .

هناك اذن روابط ادارية واقتصادية واجتماعية عبر الحدود . بحيث أن الحد السياسى هناك لا يمكن أن نجد له سندا جغرافيا دقيقا من الناحيتين الطبيعية والبشرية . واذا ما كان هناك تباين جغرافى بين جبال

(١) مكى شبكية : نفس المرجع ص ٤٤٣ .

ارتريا وسهول السودان ، فان منطقة الحدود تمثل الانتقال بين الجبل والسهل .. وليس من اليسير أن نختار فيها معالم معينة ، ثم نعتبرها فاصلة بين المنطقتين . فاذا أضفنا الى ذلك الروابط الثقافية والدينية القومية بين ارتريا والسودان حيث يسود الاسلام وتنتشر طرق دينية واحدة ، أهمها هنا الطريقة الختمية (الميرغنية) ، استطعنا أن نكون صورة واضحة المعالم للروابط القوية بين ارتريا والسودان الشرقى . وهى روابط لا تستطيع الحدود السياسية أن تلغى وجودها أو تقلل من أهميتها .

يمكن بعد هذا أن نجد فارقا كبيرا بين الحدود الشرقية والغربية للسودان . فالطابع الغالب على الحدود الغربية أنها تسير في جزئها الأوسط في أرض سهلة . وهذا القسم هو أكثر أقسام الحدود الغربية حيوية . وتأثيره في السودان أقوى من تأثير الصحراء في الشمال ، والغابات في الجنوب . والتشابه في الظروف الطبيعية وكثير من مظاهر الحياة البشرية واضح على جانبي الحدود الغربية . فلا ينتظر اذن حدوث تبادل اقتصادى عبر هذه الحدود له قيمته بين السودان وما وراءه غربا . وان كان تيار الهجرة البشرية ينبع من الغرب متجها الى السودان وادى النيل . وهو أقوى مظاهر الارتباط حتى الآن . والوضع يختلف عن ذلك في الشرق . فأثيوبيا بيئة جبلية تتباين ظاهراتها الطبيعية والبشرية عن السودان . وانعكس هذا على انتاجها الاقتصادى مما يجعل المجال أوسع لتبادل بعض السلع بين السودان وأثيوبيا . ولعل من أهم هذه السلع البن من أثيوبيا الى السودان .

فهنا نجد المتناقضات والعلاقات الجغرافية :

١ - أثيوبيا تتباين اقتصاديا مما يدعو الى التبادل ولكنها تختلف حضاريا مع السودان .

٢ - غرب أفريقيا يتشابه من بعض الوجوه حضاريا مع السودان ، وبخاصة من ناحية الدين مما يدعو الى التعاون . ولكن التشابه

الاقتصادي مع السودان من ناحية أخرى يضعف من شأن الروابط الاقتصادية .

٣ - وتتكامل الصورة اذا أضفنا الى ذلك تشابها حضاريا بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان يمكن أن يفيد من عوامل التشابه والتعاون الحضاريين ، تدعيما للروابط وبخاصة في مجال البناء الاقتصادي الحديث .

٤ - هذا بينما تهبط قوة التفاعل بين السودان ومنابع النيل الاستوائية لتصل - أحيانا - الى صورة سلبية أو عدائية ، يمثلها اتخاذ بعض الأقطار الاستوائية مراكز لمحاربة الوحدة القومية في السودان ، وتدعيم الحركات الانفصالية في السودان الجنوبي ، وان كان من الممكن أن تقل هذه السلبيات مع تطور الوعي الجديد الى التعايش السلمي ، واحترام كل دولة للكيان القومي لجيرانها دون تدخل .

ويمكن بمتابعة تقييم الروابط بين السودان وجيرانه من الشمال والشرق والجنوب والغرب ، أن نرى في وضوح وموضوعية ، أن هذه الروابط أقوى ما تكون بين الشمال والجنوب . وأنه من الممكن ، عن طريق الاستفادة من أوجه التشابه والتباين ، وضع صورة جديدة للعلاقات الافريقية عامة ، والافريقية الاسلامية خاصة ، ومؤكدا دور السودان في المجالات العربية والافريقية والاسلامية والانسانية العالمية .

٥ - جهة السودان البحرية

١ - من الناحية الدولية الرسمية تمتد هذه الجهة من خط عرض ١٨° الى ٢٢° شمالا . ومن الناحية الادارية تمتد الى شمال خط ٢٣° شمالا بقليل عند بدء الشلاتين وشأنها شأن الحدود البحرية عامة تعتبر حدا طبيعيا من الدرجة الأولى .

ولكن بالنسبة الى مساحة السودان نجد هذه الجهة ضيقة . ففي السودان يقابل الميل الساحلي ١٩٣٥ ميلا مربعا من المساحة ، بينما

ينخفض هذا الرقم - على سبيل المثال - الى ١٠٦ في فرنسا والى ٢٨ في ايطاليا .

٢ - واذا ما قارنا في أفريقية بين الدول المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، لرأينا أن الجبهة البحرية منسوبة الى المساحة تصل الى أدناها في السودان . وجمهورية الكونغو كينشاسا هي الصورة المقابلة للسودان على المحيط الاطلسي وفيها يبلغ التناقض أقصاه عند مصب النهر حيث تتزاحم دول متعددة ، وتترك هذه المساحة الداخلية الضخمة مختنقة ، وكل قطاع فيها يبحث عن مخرج يربطه بالعالم الخارجى .

من هذه الزاوية تستطيع أن تجد جانبا من تفسير مشكلة جنوب السودان : ففي الجنوب عمق نسبي في القلب استطاع الاستعمار أن يستغله في اضعاف حوافز الجنوب الى الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق الشمال . وهي نفس المشكلة التي نجدها في اقليم كاتنجا ، من حيث القدرة على الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق شبكة مواصلات غير قومية . واذا كان من الممكن - رغم سلبات الجهود الاستعمارية - أن يقوى النسيج الحضارى الأفقى في السودان في النطاق الرعوى ، وأن يقوى النسيج الحضارى المتعامد عليه - متوازنا معه - رابطا بين مصر والسودان ، وأن تصير الجبهة البحرية نافذة يطل منها السودان الشمالى والأوسط على العالم الخارجى ، فإن السودان الجنوبى كان أبعد الأجزاء - نسيبا - عن هذه الجبهة . وهذه الظاهرة الطبيعية هي التي استغلها الوجود البريطانى - نصف قرن - ليدعم ، ان استطاع ، روابط الجنوب مع وسط وشرق أفريقية ، ويعزله ان استطاع عن الشمال . واستغل منطقة السدود ليحول بها بين تدعيم الروابط بين الشمال والجنوب . من هنا نجد أن الجبهة البحرية الضيقة في السودان لم تجد من بريطانيا من العناية ما يربطها بكل مديريات السودان . وظلت شبكة الخطوط الحديدية مقتصرة على الشمال والشرق وأجزاء من الغرب ، خاضعة لحاجات الاقتصاد الذى شكلته بريطانيا من انتاج

المواد الأولية الزراعية والرعوية ، دون استجابة واعية لحاجات التماسك القومى الذى تقوم فيه شبكة المواصلات - كالشرايين - رابطة - ما استطاعت - بين أجزاء الجسم السودانى .

٣ - والسودان فى تاريخه الطويل يستطيع أن يتصل بالبحر والتجارة العالمية بطريقتين رئيسيين :

الأول : يتبع وادى النيل شمالا الى مصر ثم البحر المتوسط .

الثانى : نحو الشرق الى البحر الأحمر ثم أعلى البحار فيما وراءه شمالا وجنوبا .

والطريق الأول أطول نسيبا ، وتعترضه عقبات الجنادل ، وأخطار المرور فى عهود الاضطراب السياسى . ولكنه مع هذا كله كان النافذة الرئيسية التى أطل منها السودان على العالم فى العصور القديمة والوسطى ، وصدر العصور الحديثة . ففى مصر قامت أسواق تتوافر فيها السلع الأوربية ، ومن الممكن أن يتم فيها التبادل بين الانتاج المدارى الاستوائى ، والانتاج المعتدل الدافئ وما وراءه شمالا ، وأن يحصل السودان على المصنوعات وأن يبيع انتاجه من المواد الأولية : رعوية وغابية وحيوانية . ولا زالت بقية مصنوعاته المحلية من هذه الطرق القديمة تنبض بالتجارة فى الصحراء الشرقية ، وعلى طول النيل ، وفى قوافل الصحراء الغربية .

أما الجبهة البحرية الشرقية ، فبينها أولا وبين قلب السودان ، سلسلة جبال البحر الأحمر ، بارتفاعها ووعورتها وجفافها وقلة سكانها ومياهاها . والى شرقها سهل ساحلى يتراوح اتساعه بين عشرة وعشرين كيلو مترا تتناثر فيه مناطق الاستقرار البشرى ، حيث تتوافر موارد المياه تحملها الاخوار الجبلية ، منحدره فى سرعة من الجبال القريبة . وتعتمد الثغور التى قامت على طول هذا الشاطئ على مورد من هذه المياه . فبور سودان - مثلا - تعتمد على مياه خور أربعاءات . وطوكر

تعتمد على الآبار التي تغذيها مياه خور بركة في جريانها الفيضي الفصلى .
٤ - وتمتد على طول الساحل السودانى سلسلة مرجانية تسمى
مرجان خط الساحل .. والى شرقها - فى البحر - حاجز مرجانى
خارجى . والى غربها - فى السهل الساحلى - تلال ساحلية تغطيها
تكوينات مرجانية (١) .

والشطوط المرجانية عائق له خطره على المواصلات البحرية : فبين
خط مرجان والساحل والحاجز الخارجى مياه عميقة . وتشق الحاجز
الخارجى فتحات هى الوسيلة الآمنة للوصول الى عرض البحر . ووجود
ثغرة فى الحاجز الخارجى تعتبر من أهم الوسائل التى تحدد قيمة المرفأ ،
لأن النشاط المرجانى ، وتكون الشعاب والشطوط المرجانية ، يحتاج
الى مياه صافية ملحة .

فى هذا الضوء يمكن أن ندرك الصلة بين العمليات الطبيعية الآتية :

- ١ - أن يصب خور أو واد فى البحر ويلقى فيه رواسبه .
- ٢ - هذه الرواسب تكون ظروفًا غير ملائمة لنمو المرجان .
- ٣ - تتكون أمام مصب الوادى - بناء على ذلك - فتحة فى
الحاجز المرجانى .

ويترتب على ذلك . من الناحية البشرية ما يأتى :

- ١ - توافر مورد مائى يمثله الماء الجارى الذى يحمله الخور أو
ما يفيض فى الأرض من ماء ، يمكن استخراجه بحفر الآبار .
- ٢ - توافر فتحة المرجان التى تساعد على الوصول الى عرض
البحر .
- ٣ - توافر مكان آمن بين الحاجز المرجانى والشاطئ يمكن أن

(١) صلاح الدين الشامى : بور سودان ص ١٠ - ١٦ ط . مكتبة مصر - القاهرة

تأوى إليه السفن . وهذه الظروف جميعا تساعد على تحديد المواضع الملائمة ، لقيام الموانئ على السهل الساحلى .

٥ - والبحر الأحمر - بامتداده الطولى الذى يربط بين المناطق الاستوائية والموسمية جنوبا والمعتدلة الدفئة وما وراءها شمالا - شريان له خطرته فى التجارة الدولية . واذا كان التبادل الأفقى بين الأقطار المطلة على البحر الأحمر محدودا - اقتصاديا - فان التبادل الرأسى بين العروض المتباينة هو الأضحخ والأعمق أثرا ، وقد ازداد خطرا بعوامل رئيسية أهمها :

- ١ - شق قناة السويس فى عام ١٨٦٩ .
- ٢ - كشف الثروة البترولية الضخمة فى منطقة الخليج العربى ونقل خاماته الى العالم الغربى فى أوربا وما وراءها .
- ٣ - التطور الحضارى فى دول العالم الثالث فى آسيا وأفريقية ، وزيادة حجم التبادل التجارى بين الدول النامية هناك والدول المتقدمة فى أوربا والعالم الجديد .

واذا كانت الموانئ المطلة على البحر الأحمر قد قامت بدور كبير فى تموين السفن بالفحم ، وقت أن كان الوقود الرئيسى للسفن ، فان هذه الأهمية تراجعت أمام انتشار الوقود السائل، وقل اعتماد السفن على موانئ الخدمات فى البحر الأحمر ، بينما زادت أهمية الظهير القارى ، وما فيه من سلع أولية أو مصنوعة يمكن أن تساهم فى التجارة العالمية..

وهذا الميزان يمكن أن نزن به تطور أهمية موانئ الجبهة البحرية السودانية : فهى تستمد أهميتها الرئيسية الآن من البر ، لا من البحر ، ومن الظهير القارى بما فيه من نشاط اقتصادى ، لا من تجارة العبور وخدمة السفن .

٦ - ومن الناحية الاستراتيجية لم يكن هذا المدخل مصدر خطر عسكري على السودان . ولم يكن منطقة احتكاك كالحُدود الحبشية .

وهو - ايجابيا - يربط بين السودان ومهد الاسلام في الجزيرة العربية. والغالب على هذه الجبهة البحرية أن تزدهر فيها ميناء واحدة في وقت واحد : في العصور الوسطى والحروب الصليبية ازدهرت عيذاب ، عندما تراجع مركز الثقل في عبور البحر الأحمر من خليج السويس نحو الجنوب ، نتيجة ضغط وأخطار الحروب الصليبية . وعند زوال هذا الخطر أخذت شعلة الحياة تذوى في عيذاب حتى أصبحت أطلالا دارسة ؛ ثم ورثتها سواكن كثغر للنطاق السوداني جنوب الصحراء ؛ ثم ورثتها بور سودان ولها روابطها الأعمق بالظهير السوداني.. وهي أهمية لا تزال آخذة في النمو ..

فالمدخل البحري للسودان له - حتى الآن - طبيعة لا يتحمل معها في وقت واحد قيام أكثر من ميناء رئيسية واحدة .. موانيه الرئيسية تتعاقب تاريخيا ، ولا تتعاصر .

٢ توزيع المراكز الحضرية في السودان

المراكز الحضرية : أقسامها

اختار المشرفون على تعداد السكان الأول للسودان ١٩٥٦/٥٥ (١) ثمانية وستين مركزا حضريا بينها شكل (١٣) وكان التعداد فيها شاملا بينما كان في بقية السودان - مع استثناءات محدودة - بطريقة العينات .

وكان اختيار هذه المجموعة من المدن في مرحلة مبكرة من مراحل التعداد ، لم يكن فيها عدد السكان وتوزيعهم معروفا بدقة ، ولم تكن هذه المدن - من ناحية أخرى - أكبر ما فيها السودان . فبعضها اختير - رغم صغره - باعتباره بثورة منطقة معينة يقوم فيها بوظيفة

(١) أصدرت جمهورية السودان مطبوعات بالانجليزية - ترجم بعضها الى العربية -

عن تعداد السكان الاول في السودان ١٩٥٦/٥٥ من أهمها :

(أ) التقرير النهائي في ثلاثة مجلدات . صدر أولها في مارس ١٩٦١ .

(ب) تقرير عن الطريقة التي اتبعت في التعداد في مجلدين . صدر أولهما في نوفمبر ١٩٦٠ .

(ج) تقرير لفائدة مخططي المدن في مجلدين (أبريل ١٩٦٠) يختص أولهما بالجانب الإحصائي وفي الثاني خرائط المدن الثمان والستين التي شملها التعداد الكامل .

هذا الى مجموعة من التقارير لها بيان في ص ١١٠ من الكتاب الآتي الذي أصدرته الجمعية الفلسفية في السودان بالاشتراك مع مصلحة الإحصاء السودانية في يناير ١٩٥٨ :

The Population of the Sudan, Report on Sixth Annual Conference.

ومن بين الدراسات المنشورة في هذا المؤتمر بحث له أهمية تاريخية خاصة هو Jakob Isler & Rix H. Rotach, A Bibliographical Summary of pre-Census Efforts in Sudan.

ويخصى هذا البحث الدراسات السكانية التي أجريت عن السودان كوحدة وعن كل مديرية على حدة قبل التعداد الاول .

المدينة وبخاصة من الناحية الادارية ، بينما تركت مراكز أكثر عددا باعتبارها قرى كبيرة . وبهذا نستطيع أن نفسر كيف اختيرت كاتيرى ومريدى ويابى فى المديرية الاستوائية ضمن هذه المجموعة واعتبرت مدنا مع أن عدد السكان فى كل منها يقل عن ألف ، بينما تركت مراكز مثل مايرنو - على النيل الأزرق - مع ان عدد سكانها نحو أربعة عشرة ألفا واعتبرها التعداد قرى كبيرة (١) .

وبين التعداد أن المجموع الكلى لسكان السودان ١٠٢٦٢٠٣٦ نسمة (٢) ، منهم ٨ ٪ سكان حضر (٣) ، وهى نسبة لا زالت منخفضة بالمقارنة مع معظم دول الوطن العربى حيث المعدل العام لسكان الحضر نحو ثلث المجموع الكلى للسكان (٤) . وفى السودان مدينة واحدة - هى أم درمان - يزيد عدد سكانها عن مائة ألف . وتقرّب منها الخرطوم وبلغ عدد سكانها أكثر من ٩٣ ألفا .

وقسم التعداد المدن الثمان والستين الى ثلاث مجموعات أو «نوادي» Clubs على أساسين من الأهمية والحجم (٥) .

١ - نادى الاثنى عشرة : وكان اختيارها على أساس من أهميتها

(١) جمهورية السودان : خريطة توزيع السكان رقم (طبوغرافيا نمرة خ ٩٧٩ - ٥٨) مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠٠٠ .

(٢)

Barbour, K.M., The Republic of the Sudan, p. 105, Univer. of London Press, London, 1961.

ويعنى الكتاب بالدراسة الجغرافية العامة والاقليمية للسودان . ويخصص الفصل السابع من كتابه من ص ٩٠ الى ص ١٠٨ للدراسة السودانيين فى الريف والحضر مع المقارنة بين المديرية .

(٣) تعداد السكان الاول فى السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهائى . المجلد الاول ص ٥

(٤) عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى . ص ١٤٤ - ١٤٥ . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٥٥ .

تعداد السكان الاول فى السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهائى . المجلد الاول

ص ١٧ من المقدمة . وراجع ايضا : تقرير لفائدة مخطى المدن ج ١ ص ٥ .

(٥) كروتكى (كارول جوزيف) عشرون حفيقة وحفيقة عن السودانيين ص ٣٨ . نقله الى العربية احمد عثمان اسحق . الخرطوم . يوليو ١٩٥٨ .

الخاصة ويضم مدن العاصمة المثلة وبقية عواصم المديريات
 - ما عدا الدامر العاصمة السياسية للمديرية الشمالية - وواو
 عاصمة مديرية بحر الغزال - ثم عطبرة وادى حلفا وبورسودان
 ولهذه المدن الثلاث أهميتها في المواصلات .

٢ - فادى الخمس والثلاثين : يضم المدن التي يبلغ عدد السكان في
 كل منها خمسة آلاف فأكثر ، بما فيها مدن المجموعة الأولى .



(شكل ١٣)

٣ — بقية المدن الثمان والستين التي يقل عدد السكان في كل منها عن خمسة آلاف (ملحق ١) .

اهداف البحث :

- ويحاول هذا البحث دراسة توزيع هذه المراكز الحضرية :
- هل لهذا التوزيع محاور ؟
- ما ضوابط هذا التوزيع ؟
- ما مظاهر التفاعل بينها ؟
- هل من الممكن الاستفادة من ذلك في جغرافية المدن التطبيقية في السودان من حيث الترابط الداخلى بين أجزائه وتوثيق صلاته العربية والافريقية ؟

ثانيا - محاور التوزيع

يمكن أن نميز في توزيع المراكز الحضرية في السودان بين المحاور الآتية شكل (١٤) :

- ١ — المحور النيلى الممتد من الجنوب الى الشمال .
- ٢ — المحور الرعوى الممتد بين الغرب والشرق فيما بين خطى عرض ١٠ ، ١٥ شمالا تقريبا .
- ويلتقى هذان المحوران الرئيسيان في راض الجزيرة حيث القلب الاقتصادي للسودان .
- ٣ — أطراف هضبة الحجر الحديدى فى الجنوب الغربى ويشمل مدن يرول ورمبيك وتونج وواو . وعلى نفس المحور تقع توريت شرقى النيل .
- ٤ — محور الزاندى فى أقصى الجنوب الغربى ويوازى المحور السابق ويشمل مدن ياي ومريدى ويامبيووزارا .
- ٥ — محور البحر الأحمر وتمثله مدن السهل الساحلى والموانى : بور سودان وسواكن ثم طوكر .

وبين هذه المحاور تفاعل واضح : فقد تكون المدينة واقعة على أكثر من محور كمدن أرض الجزيرة والنيل الأبيض . وتقع مدن المحور الرابع على أطراف هضبة الحجر الحديدي كما تقع بعضها على الروافد الكبرى لبحر الغزال . كما يتأثر نمو بور سودان بالتطور الاقتصادي للسودان . ومع هذا التفاعل تتباين أهمية هذه المحاور . ويمكن أن نميز في بعضها بين أقسام فرعية ، على أسس من التأثير بعوامل طبيعية : كموارد المياه والظواهر الجيومورفولوجية ؛ وعوامل بشرية : كطرق المواصلات والتنمية في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والتطور السياسي .

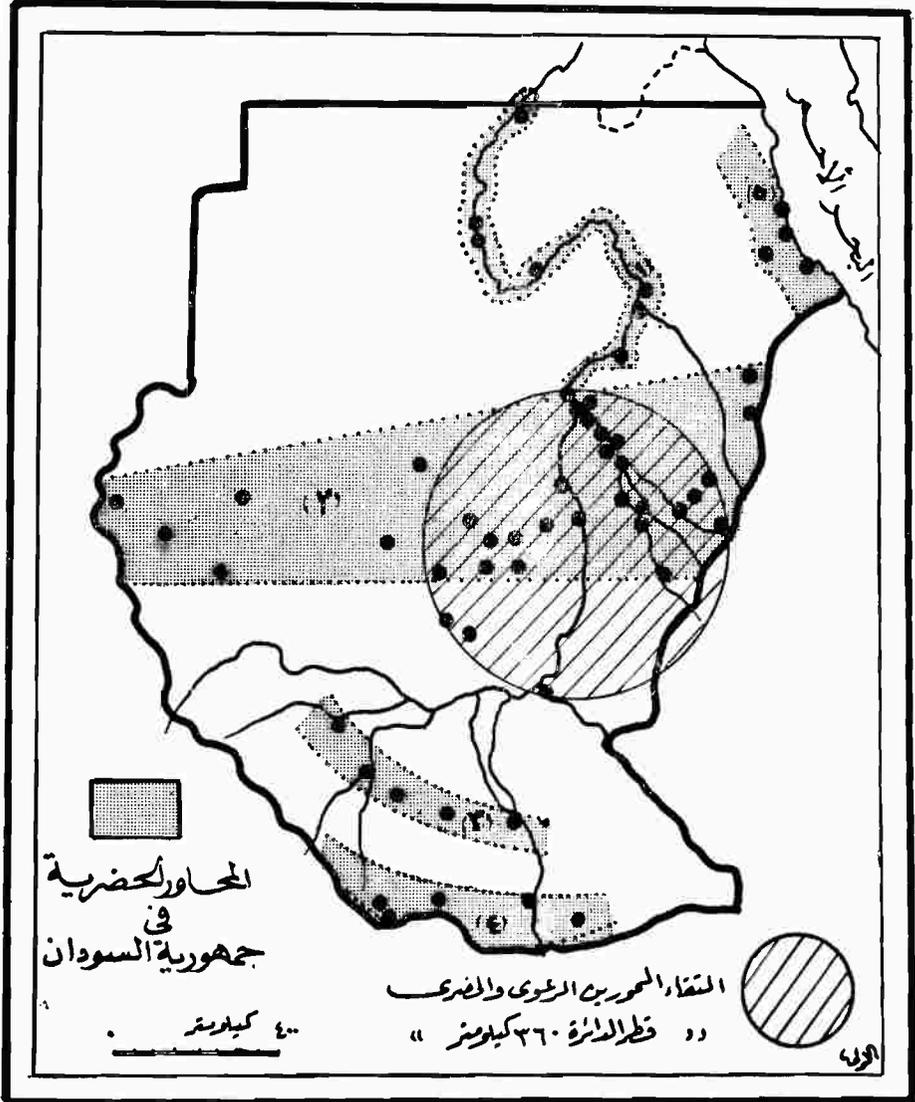
١ - محور النيل :

ومع أن المدن النيلية تشترك جميعا في أساس واحد هو وقوعها على النهر إلا أن هناك ضوابط جغرافية تحدد مواضعها . وأهم هذه الضوابط :

١ - مدى اتساع الأرض الزراعية : فالصحراء في المديرية الشمالية تقترب أحيانا من النيل حتى تشرف عليه اشرافا مباشرا ، وتبتعد عنه أحيانا لتعود الى الاقتراب منه . وتصبح أجزاء الوادى - شمال الخرطوم - قطاعات تختلف ضيقا واتساعا ، كما تختلف المساحة المروية فيها من عام الى عام مع ذبذبات الفيضان ومدى الاستفادة من مائة . ولكل مدينة من مدن المديرية الشمالية - بعامة - نطاق أو مجال من هذه الأراضي الزراعية تتناثر فيه مجموعة من القرى تتركز مصالحها في المدينة . من نماذج هذه المدن : شندى وبربر وارجو وكريمة .

٢ - توزيع الجنادل : ويبدو هذا في الأجزاء الشمالية والجنوبية من المحور النيلي في السودان - فالجنادل عقبته لها خطرهما على

الملاحة النهرية . وتمثل انقطاعا في المواصلات يحتاج الى تغيير
 في وسيلتها مما يدعو الى قيام مدينة (١) :
 (٢) من أمثلة ذلك وادي حلفا عند النهاية الشمالية للجنبدل
 الثاني ، وتربطها مواصلات نهريّة منتظمة مع بلدة الشلال



(شكل ١٤)

Vidal de la Blache, Principles of Human Geography, p. 473, (١)
 translated from French by Bing Ham, M.T., London, 1959.

جنوب أسوان عند النهاية الجنوبية للجندل الأول . وحلفا نقطة التقاء المواصلات النهرية من الشمال بالخط الحديدى نحو الجنوب . كذلك كريمة نقطة انتقال المواصلات الحديدية التى تربطها بأبو حمد بالمواصلات النهرية التى تربطها بكرمة .

(ب) فاذا اتقلنا الى الطرف الجنوبى للنيل فى السودان عند النهاية الشمالية لمساقط فولا وجدنا جوبا نقطة التقاء المواصلات النهرية الآتية من كوستى شمالا ، بالبرية المتجهة الى الكونغو وهضبة البحيرات الاستوائية .

٣ - اتجاه النيل وروافده والأودية المنتهية اليه : تعتبر مجامع الأنهار من المواقع المفضلة لقيام المدن وان كان مجرد الموقع ليس سببا فردا لقيام المدينة وانما تدخل عوامل أخرى كالعلاقات المكانية ودرجة النمو الاقتصادى بالأقليم وأوضح مثال فى السودان لهذا الضابط الجغرافى ، مجمع النيلين الأبيض والأزرق حيث قامت الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى . ومن قبل ، شاهد هذا الموقع قيام أكثر من عاصمة فى مواضع متعددة منه مثل سوبا عاصمة مملكة علوة ، وحلفاية الملوك عاصمة العبد اللاب . الملكال مثال آخر لمدينة قامت قرب مجمع السوبات بالنيل الأبيض . ويمثل مجمع العطبرة بالنيل الأعظم رأس طريق له أكثر من شعبة تتوغل فى أرض البجاة وما وراءها الى ساحل البحر الأحمر .

وكانت طرق القوافل الوسيلة الرئيسية للنقل فى السودان الى فجر القرن العشرين واعتمدت هذه الطرق - فى بعض مراحلها على روافد النهر والأودية المؤدية اليه ، كما استفادت من اتجاهات المجرى . ويبدو هذا فى منطقة النيل النوبى حيث يقترب النيل

من البحر الأحمر . وفي القطاع الممتد من مجمع النيلين الى أبو حمد قامت مدن - مثل بربر وشندى - بدور كبير في تجميع التجارة السودانية وتصديرها اما عن طريق الشمال عابرة صحراء العظمور الى الأسواق المصرية أو متجهة شرقا عبر الصحراء الى سواكن على شاطئ البحر الأحمر (١) .

٤ - الخطوط الحديدية : وقد سبقت الإشارة الى جانب منها من حيث علاقته بالجنادل والمجارى المائية . فعلى المحور النيلى مدن ازدهرت للدور الذى تقوم به المواصلات الحديدية . وأهم هذه المدن عطبرة وهى المركز الرئيسى للمواصلات الحديدية فى السودان . ومزايا الموقع فيها تشبه ما سبق قوله عن بربر من اقتراب النيل من البحر الأحمر فضلا عن وقوعها على مجمع العطبرة والنيل . وتحيا الغالبية العظمى من سكان المدينة - بطريق مباشر أو غير مباشر - على هذه الوظيفة الرئيسية للمدينة . والخرطوم - كعاصمة - لها مركزها المتوسط فى المواصلات بين السودان الشمالى والأوسط . وفى كوستى تلتقى المواصلات النهرية الصاعدة فى النيل الأبيض وبحر الجبل الى جوبا بشبكة الخطوط الحديدية فى السودان الأوسط والشمالى .

٥ - الأهمية الدينية : ومن نماذج هذه المدن الدامر وكانت ذات منزلة دينية فى القرن التاسع عشر باعتبارها المركز الرئيسى لطريقة المجاذيب . وقد عرض بركاردت (١٨١٤) الرحالة السويسرى جانبا من أهميتها الدينية فى رحلته الى النوبة (٢) .

(١) بوكهارت (جون لويس) : رحلات بوكهارت فى بلاد النوبة والسودان . ص ١٨٤ ، ١٨٥ ويوضح فيها أهمية بربر . كما يفقد دراسة مفصلة لأهمية شندى من ص ٢٣٩ وما بعدها الى ٢٥١ وعلاقة هذه المدن بقوافل سواكن وسنار ودارفور فى صدر القرن التاسع عشر ترجمه الى العربية فؤاد اندراوس . منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة . ١٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

وبعد قيام الخرطوم كعاصمة اتخذ كثير من رؤساء الضرق الصوفية الكبيرة فيها مراكز استقرار ، وان احتفظ بعضهم بالمراكز الأولى التى نشأت فيها طرقهم أو ازدهرت . وبذلك انتقل مركز الثقل الدينى فى السودان من المديرية الى الخرطوم وقلت - تبعا لذلك - أهمية هذا العامل على قيام المدن. ويمكن أن نذكر مثالين لذلك : أولهما الطريقة الختمية وكان ازدهارها من قرية الختمية التى يشرف عليها جبل كسلا فى السودان الشرقى ، والثانى الانصار وكان انتشار الطريق من جزيرة أبا فى النيل الأبيض . فمع أن كلا من الطريقتين ترعى المركز الذى انتشرت منه وعرفه الاتباع فى أول الأمر ، الا أن مركز الإقامة الرئيسى لرؤساء هذه الطرق أصبح فى العاصمة المثلة .

على هذا الضوء يمكن أن نميز فى المحور النيلي بين الأقسام الآتية :

١ - النيل النوبى : ويبدو فيه تأثير الجفاف من حيث شدة ارتباط المدن بالنهر واعتمادها عليه ومدى اتساع الأرض الزراعية وتوزيع الجنادل واتجاهات الأودية الصحراوية ومجامع الروافد والأودية بالنيل ونظام المواصلات وتضوره .

٢ - النيل الأزرق والأبيض : ويبدو فيهما تأثير امكانيات الزراعة وأنواع التربة - وسنعرض لها بعد قليل - ونمط المجارى المائية ومجامع الروافد بالنيل ونظام المواصلات .

٣ - بحر الجبل : ويمكن أن نميز فيه قطاعين :
(أ) القطاع الأدنى فى منطقة السدود وليس فيه - فى الوقت الحاضر - أى مركز حضرى .

(ب) القطاع الأوسط : وهو منطقة الانتقال بين المجرى الأدنى فى منطقة السدود والأعلى فى أوغندا . وعند النهاية الشمالية لمنطقة الانتقال هذه قامت مدينة جوبا . وهى

المدينة الوحيدة على بحر الجبل في السودان . وكان تطور القطاع الأعلى - في أوغندا - سابقا للقطاعين الأوسط والأدنى ، نتيجة لاقامة سد أوين عند مخرج النيل من بحيرة فكتوريا ، وانشاء محطة توليد كهرباء عليه ، واستخراج النحاس من مناجم كيلمبي في روزورى .

٢ - المحور الرعوى :

ونستطيع أن نتبع هذا المحور من غرب السودان الى شرقه ، وهو ليس خطا ، ولكنه نطاق يمتد نحو خمس درجات عرضية بين ١٠ ، ١٥ شمالا ، ويوازي نطاق البحر المتوسط وبينهما الصحراء ، والى جنوبه المستنقعات والغابات . ويتعامد المحور النيلى على هذه القطاعات جميعا . وكان لهذا التعامد أثره في الربط الحضارى بين شمال الصحراء وجنوبها ، بل ان هذه المؤثرات الحضارية استطاعت أن تتوغل على طول المحور النيلى حتى تصل الى المنابع الاستوائية .

١. - وتعتمد المراكز الحضارية في المحور أو النطاق الرعوى على موارد ماء متنوعة :

(أ) هناك أولا المورد النيلى . ولا زالت أرض الجزيرة - ومديرية النيل الأزرق بعامة - حيث يلتقى المحوران الرعوى والنيلى - مركز الثقل الاقتصادى في السودان وتساهم بالقسط الأكبر من دخله القومى . في هذه المديرية وحدها يعيش أكثر من مليونين من السكان تصل نسبتهم الى ٢٠.٣ ٪ (١) من مجموع سكان السودان . ومع أن نسبة سكان الحضر الى المجموع الكلى ٦.٩ ٪ (٢) في مديرية النيل الأزرق - وهو رقم منخفض - الا أن انخفاضه يرجع الى السياسة التى اتبعت في التعداد؛

(١) تعداد السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهائى . المجلد الاول . جدول (1.1)

Barbour (1961), p. 105.

(٢)

ويبدو أنها تأثرت تأثرا كبيرا بالوظيفة الادارية للمدن ، واعتبرت مراكز كمايرنو والمناقل قري . ورغم هذا فان عدد المراكز الحضرية فيها ثلاثة عشر وهو رقم لا تصل اليه أية مديرية أخرى عدا كردفان ، ويهبط فيها المجموع الكلى للسكان الى ٨٧٤٠٠٠ منهم ٤٠٠٠٠ يسكنون الحضر . ويعطينا هذا فكرة عن ضآلة معدل حجم المدينة في كردفان اذا قارناها بالنيل الأزرق (ملحق ٢) .

(ب) ويفزر المطر في السودان كلما اتجهنا جنوبا ، ولهذا كانت الاطراف الشمالية لهذا الاقليم أميل الى الجفاف وتنتهى بنا الى الصحراء . ويمكن أن نرى العلاقة القوية بين توزيع المراكز الحضرية ومعدل المطر اذا لاحظنا أنه - بعيدا عن الخط الحديدى والنهر - تقع معظم المراكز الحضرية في وسط النطاق وجنوبه ويبدو هذا بوضوح في كردفان ودارفور .

(ج) وبعض هذه الأمطار يجرى في النهر والبعض الآخر في الأودية الفصلية (الاخوار) كالقاش في السودان الشرقى وتعتمد على مياهه مدن الدلتا القاش : كسلا وأروما ووقر : وخور أبو جبل في كردفان وعلى مائه تعتمد مدينة الأبيض .

٢ - التربة : وتؤثر في مدى الافادة من الموارد المائية ولهذا يمكن أن تقسم هذا النطاق الى قسمين كبيرين : أرض القوز (الرمال الحمراء) في الغرب ، والتربة الصلصالية (الطينية) شرق النيل الأبيض (شكل ١٤) (١) ، وان كانت هناك - وبخاصة - في

Jewitt, T.N., The soils of the Sudan, p. 8 (duplicated) (١)
Shelved at 631. 4 (624), Research Division Library, Wad Medani, 1953.

ويراجع عن التكوينات السطحية في السودان :

Andrew, G., The Geology of the Sudan, pp. 117-122, in : Tothill, J.D., (editor), Agriculture in the Sudan, O.U.P. 1948.

الشرق قطع من التربة الفيضية لها طبيعتها المتميزة عما حولها
مثل تربة دلتا القاش .

ويسهل الوصول الى الماء الجوفى فى تربة القوز . ويصعب
هذا فى التربة الصلصالية ، ولهذا أمكن قيام كثير من المراكز
الحضرية فى الغرب بعيدة عن النهر معتمدة على التخزين السطحى
فى الحفائر والفولات والصحاريح (١) ، أو الجوفى فى الطبقات
الحاملة للماء ثم استنباط هذا الماء فى فصل الجفاف عن طريق
حفر الآبار ، وكان لتوزيع أشجار التبلدى تأثير على توزيع
التجمعات البشرية فى الغرب عندما كان الاعتماد كبيرا على تخزين
الماء فيها . وقد قلت أهمية ذلك مع التوسع فى انشاء الحفائر
والصحاريح (٢) . وفى هذا كله ما يفسر تناثر المراكز الحضرية
غرب النيل ، وان استطعنا أن نميز هناك تجمعين كبيرين أولهما
— وهو الأهم — فى الجزء الأوسط والجنوبى من كردفان والثانى
فى دارفور وبينهما منطقة تخلخل سكانى وحضرى تتأثر بطبيعة
الكثبان الرملية وانعكاس ذلك على صعوبة المواصلات بين
كردفان ودارفور . أما فى الشرق فتركز المراكز الحضرية
— غالبا — على المجارى المائية كما فى أرض الجزيرة والنيل
الأبيض ، أو تربط بالخط الحديدى كما فى القطاع الممتد من
سنار شرقا الى كسلا ثم الى الجبهة البحرية للسودان .

٣ — تأثير المواصلات : أمكن على طول الخط الحديدى بين الخرطوم
وكسلا — عن طريق سنار — أن تقوم مراكز استقرار ويرجع

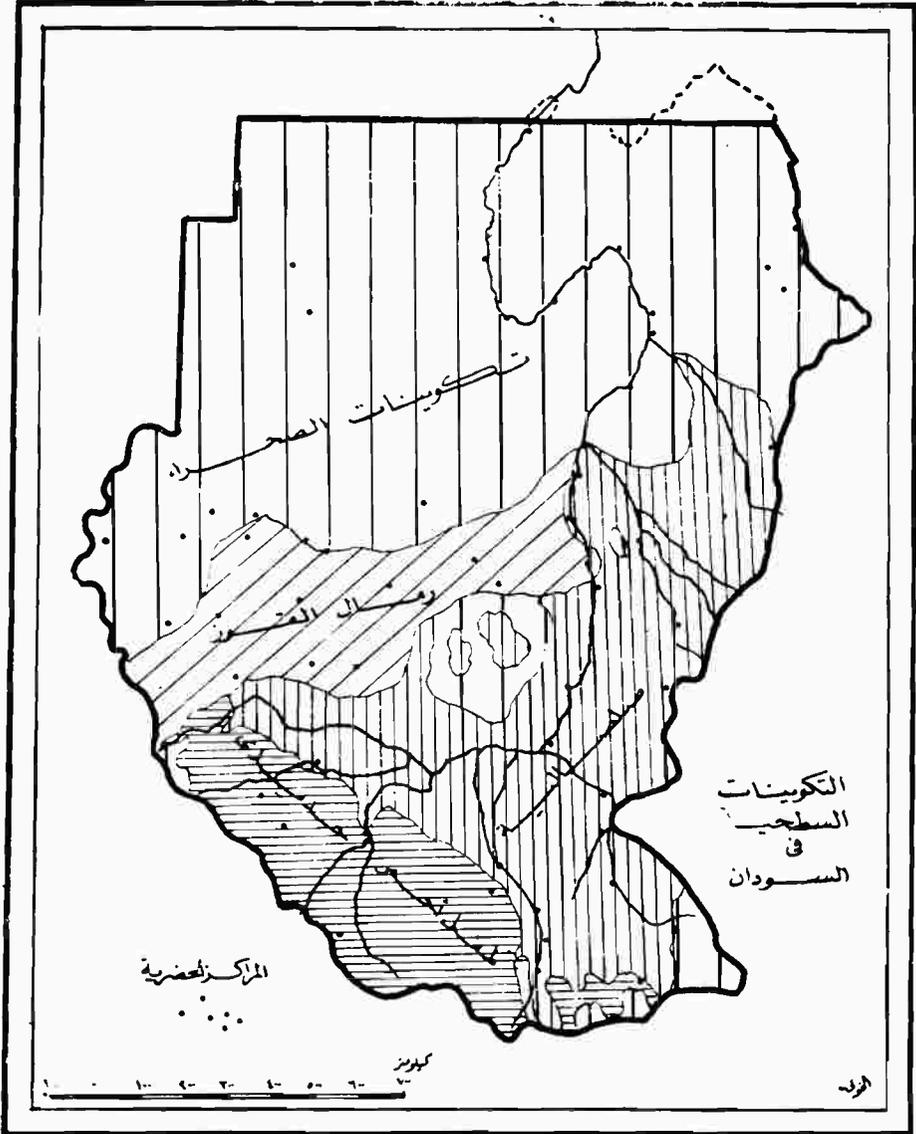
(١) يطلق لفظ « فولة » فى السودان الغربى على المنخفضات الطبيعية التى يمكن
استغلالها فى التخزين السطحى . وتعتمد الابيض فى توفير ماء الشرب على هذه
الطريقة . (Jewitt (1953), Chap. 3, p. 1) أما الحفائر فهى خزانات
سطحية مكشوفة توسع السودان فى حفرها وانشائها والاستفادة منها فى نطاقه
الأوسط . وتختار أماكن الحفر على أساس من قدرتها على الاحتفاظ بالماء دون أن
يضيع قدر كبير منه بالتسرب

(Barbour (1961), pp. 97 & 168).

Jewitt, (1953), Chap. 3, p. 1.

(٢)

جزء كبير من أهميتها الى قيامها بوظيفة المدينة على مراحل الخط الحديدي : كالادارة وتجميع التجارة . ومن أمثلة ذلك الشوك والحواتة والسوكي والقضارف . كذلك مكن الخط الحديدي الممتد من كسلا الى بور سودان - عن طريق هيا - من التوسع في انتاج القطن في دلتا القاش وقيام بعض المراكز



(شكل ١٥)

الحضرية فيه مثل اروما ووقر ، وهذا بالاضافة الى الأهمية التجارية لكسلا وترجع الى انشائها في القرن التاسع عشر . وعلى هذا القطاع من الخط الحديدي تقع سنكات ويرجع اختيارها بين المدن الثماني والستين الرئيسية الى وظيفتها الادارية في أرض البجة وتعتمد على خدر أديت في الحصول على الماء وهى تقع في صميم الاقليم الصحراوى الشمالى وان كان ارتباطها قويا ببقية الوطن البجاوى الممتد الى ما وراء حدود السودان في ارتريا .

٤ — طرق القوافل الدقيمة : ما سبق قوله عن قاعدة الانقطاع في المواصلات بتأثير الجنادل يمكن تطبيقه هنا بين الصحراء والنطاق الرعوى . فهنا نشأت موان صحراوية في النطاق الرعوى جنوب الصحراء . ومن هذه الموانى : الفاشر والأبيض في السودان الغربى وأم درمان عند مجمع النيلين الأبيض والأزرق وكسلانى السودان الشرقى . وقامت هذه المدن بدورها في تجمع تجارة الجنوب والوسط واستقبال تجارة الشمال بعد عبورها الصحراء من نطاق البحر المتوسط وما وراءه من موانى أوربا . وأمكن للمواصلات الحديدية أن تحفظ وتطور النشاط الاقتصادى والتوجيه الجغرافى في بعض هذه المراكز كالأبيض وأم درمان وكسلا بينما تدهورت بعض المراكز الأخرى — كالفاشر — عندما تحولت عنها التجارة .

تأثير التفاعل بين المحورين النيلى والرعوى على انتقال مركز الثقل السياسى فى السودان

فى صدر القرن التاسع عشر كانت قوى السودان السياسية الرئيسية
مركزة فى :

١ — سلطنة الفونج السنارية أو السلطنة الزرقاء فى الشرق .

٢ — سلطنة الفور فى الغرب .

وبهذا كانت القوى الكبرى قائمة وقتئذ في النطاق الرعوى وكانت سلطنة الفونج مرتكزة على النيل الأزرق وزحفها الرئيسى نحو الغرب والشمال وان امتد نفوذها الى أرض التاكا (القاش) في الشرق ومن ورائها أثيوبيا بجبالها وعزلتها وبيئتها الجغرافية المتميزة عن سهول السودان . وكانت سنار - على النيل الأزرق - مركز هذه القوة الشرقية المتجهة الى سهول السودان الأوسط بخاصة (١) . أما سلطنة الفور فكان لها الوضع المقابل في النطاق الرعوى ، وتستند الى كتلة جبل مرة في الغرب حيث تتوافر موارد مياه وأماكن ايواء وبيئة متميزة صالحة لاستغلال أكثر من محصول زراعى على المدرجات الجبلية وأمامها سهول غرب السودان مجالا مفتوحا للتوسع (٢) . ولم يكن الجنوب بغاباته ورطوبته بالمجال الحيوى - وقتئذ - لكل من الدولتين، ولهذا كان السودان الأوسط هو المجال الرئيسى ، مع اتجاه الى الشمال النيلى ، وارتباط بما وراء الصحراء عن طريق التجارة بخاصة ، والصلات الحضارية - من اللغة والدين - بعامة .

ومع امتداد النفوذ المصرى من الشمال فى أوائل القرن التاسع عشر حدث تغيير فى ميزان القوى ، وبرزت أهمية مجمع النيلين الأبيض والأزرق ، كنقطة قريبة من الشمال يمكن اتخاذها قاعدة انطلاق فى النطاق الرعوى الى الشرق والجنوب والغرب . وقد شاهد هذا الموقع قيام عواصم تاريخية مثل صوبا عاصمة مملكة علوة (٣) وحلفاية الملوك

(١) Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, pp. 188 & 244-246.

الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ السودان وادى النيل ص ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ القاهرة . ١٩٥٠ .

(٢) نعمون شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ١١٦ - ١٢٦ . وفي هذه الصفحات عرض لحروب سلطنة الفور وبيدو اتجاهها الرئيسى نحو الشرق . القاهرة ١٩٠٢ .

(٣) يسير الفريزى (الخطط ج ١ ص ٢١٠ ط النيل بالقاهرة ١٢٢٤ هـ) الى مجمع النيلين وعلاقته بالعاصمة فيقول « ويجتمع هذان النهران الابيض والاخضر عند مدينة متملك بلدة علوة » .

عاصمة العبد اللاب (١) . وهذا الموقع المتوسط يفضل كلا من مجعئ النيل بالعطيرة والسوبات . فالأول موغل فى الصحراء شمالا وبعيد نسبيا عن النطاق الرعوى . والثانى موغل فى الجنوب بحيث لا يمكن - اتخاذه - وقتئذ - قاعدة لادارة السودان . ومع هذا فقد شهد كل من المجمعين الشمالى والجنوبى قيام مراكز حضرية ، وان لم تصل الى قوة التأثير السياسية للمجمع الأوسط حيث قامت الخرطوم .

بهذا يتضح التفاعل بين ثلاث عواصم اتخذت شكل مثلث فى حوض النيل الأدنى والأوسط : اثنتان منها فى النطاق الرعوى وهما سنار والفاشر وتمثلان قاعدة المثلث ، والثالثة القاهرة فى رأس المثلث ، وقد أدى التفاعل الى « أسر حضرى » ظهرت به عاصمة جديدة فى وسط المثلث - هى الخرطوم - استطاعت أن تمتص حيوية العاصمتين الجنوبيتين - سنار والفاشر - وأن تطور وظيفة العاصمة ، وتوسع مجالها الادارى ، متأثرة فى ذلك بعوامل محلية وخارجية .

هذا الدور من الجذب المركزى أدى الى شىء من الذبول الاقتصادى فى الجناحين الشرقى والغربى من النطاق الرعوى ، انعكس على ضمور العواصم القديمة وأهميتها بحيث أصبح عدد سكان سنار أقل من عشرة آلاف ، وتأتى فى المرتبة الواحدة والعشرين بين المدن الثمانى والستين؛ وعدد سكان الفاشر أكثر من ٢٥ ألفا وتأتى فى المرتبة التاسعة . ولازالت آثار العمران والحضارة فى دارفور تنبىء عن مجد قديم وتوسع لهم تستطيع أن تستعيده حتى الآن .

وزاد من هذا الضمور تدهور تجارة القوافل ، ولم تعد قافلة سنار أو قافلة دارفور مصدر ذلك الثراء العريض الذى ساعد على ازدهار الدولتين .

(١) كانت بلدة قرى - شرقى خانق سبلوقة - شسمال مجمع النيلين الابيض والازرق العاصمة الاولى للعبد اللاب ، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك الى حلفاية الملوك (محمد عوض محمد : السودان الشمالى - سكانه وقبائله ص ٢١٨ . القاهرة ١٩٥١) .

ولم يكن ازدهار الجزيرة والتوسع الزراعى فيها امتدادا لتاريخ سنار ، وانما كان مرتبنا بتطور السودان الحديث فى زراعة القطن .

وبعد أن مر السودان الأوسط فى ذلك الدور من الجذب المركزى، أخذ الآن يحاول أن يمد الجناحين الضامرين بحيوية جديدة . وذلك بالتوسع فى التنمية الاقتصادية فى الجزيرة العليا (١) وفى دارفور (٢) ، يمهّد لذلك مد الخط الحديدى من سنار جنوبا ومن الأبيض غربا مع العناية بمشروعات الجنوب لتتكامل مع مشروعات الوسط .

وكان هذا فى عهد استقلال السودان عندما حملت الخرطوم المسئولية كاملة حملا أدى الى تغيير فى حجم السكان بين مدن العاصمة المثثة ، اذ بدأ الميزان يميل الآن الى الخرطوم - كعاصمة - لها وظائف جديدة لم تكن لها من قبل . ولاشك فى أن ذلك سيؤثر على الحياة فى أم درمان وسيقفز بالخرطوم الى المرتبة الأولى من حيث الحجم وكثافة السكان (٣) .

٢ - الاطراف الشمالية لهضبة الحجر الحديدى فى الجنوب الغربى :

فى السودان اطار جبرى يمكن أن نتبعه مع خط منسوب ٥٠٠ متر . ويصل عمق هذا القوس الجبرى الى خط عرض ٥° شمالا تقريبا . وفى الجزء الجنوبى الأوسط من تجويفة منطقة السدود . وهى منطقة تخلخل سكانى كالغابة أو الصحراء من بعض الوجوه .

وبهذا تتخذ المراكز الحضرية فى السودان شكل السهم والقوس : السهم هو المحور النيلى ، ووتر القوس المحور الرعوى ، وعود القوس

(١) سمد الدين فوزى : محاضرات عن جوانب من الاقتصاد السودانى ص ١١٤ -

مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) Barbour, (1961), pp. 156-157.

(٣) Hamdan, G., Some Aspects of the Urban Geography of the Khartoum Complex, Bull. Soc. Geog. d'Egypte, Vol XXXII p. 92, 1959.

تمثله المدن التي يجمعها خط منسوب ٥٠٠ م جنوب النطاق الرعوى .
وتبلغ أقصى عمقها الجنوبي على النيل عند حوبا .

وتمثل مجموعة مدن : أويل وواو وتونج ورمبيك ويرول محورا
من موان مستنقعية على أطراف السدود . وتقع جنوب اقليم التربة
الصلصالية . وينطبق نفس الوضع على جوبا وتوريت . وان تحكم في
الأولى موقعها بالنسبة الى مساقط فولا .

وتستطيع السفن الوصول الى واو - عاصمة مديرية بحر الغزال -
فيما بين يوليو وأكتوبر عند ارتفاع مياه بحر الغزال . أما في الشهور
الأخرى فلا بد من ميناء أمامي في المشرع . وهذه المراكز الحضرية صغيرة
الحجم - بعامة - وان كانت لها وظيفة المدن .

٤ - محور الزاندى :

ومدنه أيضا صغيرة تأثر تطورها بتعبيد الطرق وقيام مشروع
الزاندى (١) و في مديرتي الاستوائية وبحر الغزال تهبط نسبة سكان
المدن الى ١٦٦ ، ١٧٧ / من مجموع السكان في كل من المديرتين .
فالمحور على هذا الأساس حديث ومحدود المدى ، ويرتبط ارتباطا أساسيا
بالمشروع وتخطيطه وتطور تنفيذه ، وزراعة القطن في أرض الزاندى
حيث مدن نزارا ويامبيو ومريدى ، وأرض المورو حيث مدينة ياي .
والمحور - بعامة - مواز للمحور السابق في مديرية بحر الغزال .

٥ - المحور البحرى :

ويمكن أن نميز فيه على قلة عدد مدنه بين :

(أ) المدن الزراعية :

وتمثلها طوكر . وتشبهه - من بعض الوجوه - كسلا وبقية مدن

Ferguson, H., Equatoria Province, pp. 916-918, in : Tothill, (١)
Agr. in the Sudan, 1948.

دلنا القاش : أروما ووقر من حيث اعتمادها على ماء الخور في الزراعة
الفيضية وتوفير السقيا . وليس هناك ارتباط مباشر بين دلتا طوكر
والجبهة البحرية من الناحية التجارية الا في قرب ميناء التصدير ماشجع
على البدء باستغلال هذه الدلتا لزراعة القطن في القرن الماضي .
(ب) الموانى :

وتمثلها في الوقت الحاضر بور سودان - المدينة الخامسة في
السودان - من حيث الحجم بمجموع يقترب من ٤٨ ألف نسمة بعد
ودمدنى .

وبورسودان (١) هى التى ورثت سواكن كمنفذ للجبهة البحرية
الشرقية . وشاهدت هذه الجبهة من قبل - قيام عيذاب (٢) . والذي
يبدو من هذا أن هذا المدخل البحرى لم يتحمل في تاريخه قيام أكثر
من ميناء رئيسية في وقت واحد . والفرق كبير بين الميناء الرئيسية
وما وراءها من موانى ثانوية مثل عقيق ومحمد قول .

وهناك ضوابط محلية تتحكم في قيام الموانى على هذه الجبهة
البحرية :

١ - توافر مورد مائى عذب يعتمد على الأودية الجبلية المنحدرة الى
السهل الساحلى .

(١) في دراسة تطور الموانى السودانية يمكن الرجوع الى :
صلاح الشامى (١) التوجية البحرى للسودان (رسالة دكتوراة غير منشورة)
١٩٥٧ .

(ب) بور سودان ميناء السودان الحديث . القاهرة ١٩٥٨ .
(٢) كان ازدهار عيذاب راجعا الى تحول طريق الحج الى الجنوب عندما كان طريق
الشمال مهددا بالصليبيين ، ثم قفنا أهميتها وتدهورت بعد تراجع الخطر الصليبي .
ثم بادت . وصف ابن جبير في رحلته عيذاب وصفا مفصلا وقت ازدهارها (رحلة
ابن جبيرص ٤٢ - ٤٦ تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥) . اما اطلالها الحالية
فيمكن فيها الرجوع الى البحث الآتى :

Paul, A ; Aidhab : A Medieval Sea Port, S.N.R. Vol. xxxvi, part 2.
pp. 64-70 June, 1955.

٢ - وجود فتحة في الحاجز المرجاني الموازي للساحل تمكن من الخروج الى عرض البحر والعودة الى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

وهذان العاملان متفاعلان : فجريان الأودية وانصبابها في البحر يؤدي الى قلة الصفاء والملوحة في الماء مما يعوق نمو المرجان .

وبهذا نستطيع أن نفسر قيام بور سودان معتمدة على ماء خور أربعاء وموج . والى شرقها فتحة تيسر دخول السفن وخروجها .

وتعتمد هذه الجبهة البحرية - من الناحية الاقتصادية - على تصدير انتاج السودان واستقبال وارداته . وهي لا تزال مركزة - الى حد كبير - في السودان الأوسط . ومع اتساع المنطقة التي تخدمها خطوط المواصلات ، الا أن النشاط الاقتصادي لا يزال في مجموعه محدودا . ومن هنا نستطيع أن نفسر النظام الشجري المركزي للخطوط الحديدية في السودان . وكيف أن الفروع - على تعددها - تتجمع في ميناء التصدير الرئيسية . ولا تقوم وادى حلفا في التجارة الخارجية الا بدور ضئيل بالنسبة الى تجارة بور سودان وينعكس أثر ذلك على حجم المدينة فعدد سكان حلفا ١١ر٠٠٠ وترتيبها الثامنة عشرة بين المدن المختارة .

هذا عن المقارنة الحضرية بين المدخلين الشمالي والبحري في الوقت الحاضر ، أما المداخل الغربية والجنوبية فلا زالت حتى الآن لا تتمتع بمواصلات حديدية وهي شريان الحياة والاتصال في السودان ، وعلى مراحلها يمكن أن تقوم مراكز حضرية جديدة .

ثالثا - نتائج

١ - هذا النمط من توزيع المراكز الحضرية ، وان كانت فيه ملامح ثابتة الا أنه متطور مع تطور السودان الاقتصادي وتنفيذ مشروعات التنمية فيه .

٢ - وتمثل منطقة السدود فجوة حضرية بين وسط السودان وجنوبه. وستؤدي مشروعات التنمية فيها الى اتصال المراكز الحضرية على طول المحور النيلى وروافده الاستوائية فى حوض الجبل والغزال .

٣ - وهناك فجوة أخرى بين كردفان ودارفور . ويبدو هذا فى توزيع مدن السودان الغربى فى نمط كوكبى له مجموعتان أساسيتان : احدهما فى كردفان والثانية فى دارفور . ولا شك فى أن اتصال هذه المراكز والعناية بمد الخطوط الحديدية - وهو ما يأخذ به السودان - سيؤدي الى اتصال المراكز الحضرية الحالية وقيام مراكز جديدة .

٤ - والنتيجة المترتبة على ذلك هى تدعيم الاتصال بين أجزاء السودان وسيساعد هذا الترابط بين الجنوب والوسط بجناحيه الشرقى والغربى - والشمال على تدعيم القومية فى السودان والاسراع فى صهر الأوضاع القبلية وهو أمر عميق الأثر فى تطور السودان .

٥ -- فاذا اتقلنا بعد هذا الى دائرة الوطن العربى الكبير ، وجدنا أنه قد آن الأوان لتدعيم المراكز الحضرية على محاور الاتصال الطبيعية بين أجزاء هذا الوطن فى أفريقية . وستساعد على هذا مشروعات التنمية الجديدة . ومن أهم نماذجها مشروع السد العالى ، ويمثل استجابة طبيعية لمقتضيات التطور العربى وتعاوننا له آثاره الاقتصادية والاجتماعية بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان و « عصر نهضة » فى منطقة التخلخل السكانى بين القطرين الشقيقين ، تنمو فيه المراكز الحضرية فى المنطقة وتترابط .

٦ - فاذا خرجنا من هذا الى الدائرة الأوسع ونظرنا الى الدور الذى ينبغى على السودان أن يقوم به بحكم وضعه الجغرافى ورأبناؤه عربيا أفريقيا . فالسودان يمثل أقصى امتداد جنوبى للثقافة

العربية فى قلب افريقية . وهو فى حوض النيل – جبهة ريادة
للثقافة العربية متجهة الى قلب القارة وهو – الى جانب ذلك –
منطقة التقاء المحور النيلى الممتد الى قلب القارة بالمحور الرعوى
الممتد بين شرقها وغربها .

وتدعيم المراكز الواقعة على الأطراف يساعد على تقوية شبكة
الاتصال الكبيرة بين أقطار الوطن العربى والدول الافريقية الحديثة
الاستقلال . وهذا بدوره يساعد على التقارب الفكرى . والفكر أساس
فى كل تطور .

ملحق « ١ »

المراكز الحضرية في السودان في تعداد السكان الاول ١٩٥٥ - ١٩٥٦
حسب عدد السكان في كل منها مع بيان المجموعة التي يتبعها

رقم المجموعة	عدد السكان	المدينة	رقم
٢٤١	١١٣٥٥١	أم درمان	١
٢٤١	٩٣١.٣	الخرطوم	٢
٢٤١	٥٢٣٧٢	الابيض	٣
٢٤١	٤٧٦٧٧	ود مدني	٤
٢٤١	٤٧٥٦٢	بور سودان	٥
٢٤١	٤.٦١٢	كسلا	٦
٢٤١	٢٩.٨١	الخرطوم بحري	٧
٢٤١	٣٦٢٩٨	عطبرة	٨
٢٤١	٢٦١٦١	الفاشر	٩
٢	٢٢٦٨٨	كوستي	١٠
٢	١٧٥٣٧	القضارف	١١
٢	١٦٨.٢	طوكر	١٢
٢	١٦٤٩٨	النهود	١٣
٢	١٢٣١٩	الدويم	١٤
٢	١٢٢٧٨	نيالا	١٥
٢	١١٨١٧	الجنينة	١٦
٢	١١.٣١	شندي	١٧
٢٤١	١١.٠٦	وادي حلفا	١٨
٢	١.٩٧٧	بربر	١٩
٢٤١	١.٦٦.	جوبا	٢٠
٢٤١	٩٦٨.	ملكال	٢١
٢	٩٤٣٦	سنجا	٢٢
٢	٩١٣٧	رفاعة	٢٣
٢	٨.٩٣	سنار	٢٤
٢	٨.٠٩	واو	٢٥
٢	٧٨.٥	أم رواية	٢٦
٢	٧٥٥٥	تندلتي	٢٧
٢	٧٣٨٨	السوكي	٢٨
٢	٦٧.٦	الرهدي	٢٩
٢	٦٦١١	شمبات	٣٠
٢	٦٦.٠	الحصاحيصا	٣١
٢	٥٩٨٩	كريمة	٣٢
٢	٥٥٩٦	دلنج	٣٣
٢	٥٤٥٨	الدامر	٣٤

بقية ملحق (1)

رقم المجموعة	عدد السكان	المدينة	رقم
٢	٥١٧٥	سنكات	٣٥
٣	٤٨٨٤	بارة	٣٦
٣	٤٧١٦	كدوجلي	٣٧
٣	٤٦٧٦	وقر	٣٨
٣	٤٣٤١	الكاملين	٣٩
٣	٤٢٢٨	سواكن	٤٠
٣	٤١٥٤	ابو كرشولة	٤١
٣	٣٩٢٧	الرصيرص	٤٢
٣	٣٩٢١	الحواةة	٤٣
٣	٣٨٩٠	بامبيو	٤٤
٣	٣٧٣٥	مقلد	٤٥
٣	٣٤٥١	أروما	٤٦
٣	٣٣٥٠	دنقلة	٤٧
٣	٣٣١٤	راننجي	٤٨
٣	٣١٣١	المسلمية	٤٩
٣	٣٠٨٣	قلع النحل	٥٠
٣	٢٩٧١	نزارا	٥١
٣	٢٩٤٤	رمبيك	٥٢
٣	٢٨٤٦	العباسية	٥٣
٣	٢٧٣٦	تالودي	٥٤
٣	٢٤٣٨	اويل	٥٥
٣	٢٣٥٣	توريت	٥٦
٣	٢٣٢٩	أرجو	٥٧
٣	٢١٧١	الشوك	٥٨
٣	٢٠٧١	تونج	٥٩
٣	٢٠١٦	برى اللاماب	٦٠
٣	١٨٩٥	يرول	٦١
٣	١٨٠٤	سودري	٦٢
٣	١٦٨٣	رشاد	٦٣
٣	١٦٤٧	كرمك	٦٤
٣	١٦٢٠	مروى	٦٥
٣	٨٣٩	ماريدي	٦٦
٣	٧٣٩	باي	٦٧
٣	٦٩٩	كاتيري	٦٨

١ - مادة هذا الملحق مستمدة من : تقرير لفائدة مخطى المدن الجزء الاول .

(أ) جدول (9.19) ص ٢٠٦

(ب) جدول (10.1) ص ٢١٠ - ٢١١

- ١٧٨ -

ملحق ٢ (١)

توزيع السكان والمراكز الحضرية ونسبة سكان الحضر الى مجموع السكان في مديريات السودان

عدد الحضرية المراكز	النسبة المئوية لسكان الحضر	مجموع عدد السكان	المديرية
٥	١٧	٩٩١.٢٢	بحر الغزال
١٣	٦٩	٢.٦٩٦٤٦	النيل الأزرق
٤	٤	١٣٢٨٧٦٥	دارفور
٧	١٦	٩.٣٥.٣	الاستوائية
١١	١٥٨	٩٤١.٣٩	كسلا
٥	٥.	٥.٤٩٢٣	الخرطوم
١٣	٦٥	١٧٦١٩٦٨	كردفان
٩	١.٥٥	٨٧٣.٥٩	الشمالية
١	١١	٨٨٨٦١١	أعلى النيل
٦٨	٨	١.٢٦٢٥٣٦	السودان

١ - ١ (١) التقرير النهائي لتعداد ١٩٥٦/٥٥ المجد الاول جدول (1.1)

(ب) تقرير لفائدة مخطى المدن الجزء الاول . جدول (10.1)
Barbour (1961), pp. 104-106 (ج)

وجه السودان

دراسة حضارية مقارنة*

هدية :

الاتجاه الى تبين الشخصية الاقليمية هدف صاحب الجغرافيا من أقدم عصور حياتها مع دورات من الازهار والذبول . تطفى عليه أحيانا أهداف أخرى تجنح بالجغرافيا الى اتجاه طبيعى أو بشرى يضطرب معه توازنها .

ونستطيع أن نرجع بهذا الهدف فى العصر الحديث الى ما استنبطه رشتوفن من وجهات نظر هبوتل ورتير ، واتضحت معالمه فى كتابات ألفرد هنتير منذ أواخر القرن التاسع عشر . فهو يذكر (١٨٩٨) أن موضوع الجغرافيا المميز من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر هو معرفة بقاع الأرض من حيث تباين كل منها عن الأخرى . وفى عام ١٩٠٥ رعى هنتير الجغرافيا بأنها العلم الكورولوجى للأرض ، أو علم بقاع الأرض وأماكنها ، أو هى علم سطح الأرض من حيث التباين الاقليمى . وقريب من هذا تعريف فيدال ديلا بلاش بأنها « علم الأماكن » . وهذا المنحى يحمله الآن هارتسهورن ، فالجغرافيا عنده « علم التباين الأرضى (١) » .

* من أبحاث المؤتمر العالمى « السودان فى افريقية » الذى دعت اليه شعبة بحوث السودان بكلية الاداب بجامعة الخرطوم فيما بين ٥ ، ١١ فبراير ١٩٦٨ . كان عرض البحث ومناقشته فى لجنة الجغرافيا صباح ٥ فبراير ١٩٦٨ فى قاعة مجلس جامعة الخرطوم بالسودان ، وقد نشر هذا البحث باللغة الفرنسية فى مجلة الدراسات السودانية - كلية الاداب - جامعة الخرطوم ونشر بالانجليزية العنوان : Sudan Profile فى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ص ٥ - ٢٣ المجلد الاربعون ١٩٦٧ - القاهرة الصادر عام ١٩٧٠ .

Hartshorne R. : Perspective on the nature of Geography, (١)

p. 13, Chicago, 1959.

وإذا كان هذا التعريف هو المرفأ الذى تأوى اليه الآن سفينة الجغرافيا فى سيرها الطويل ، ومن بعده تطورات - شأن أى علم - فإن الباحث العربى فى قطر عربى لا يسعه الا أن يذكر فى ايجاز تقتضيه ضبيعة البحث - مدى عناية العرب بالشخصية الاقليمية . فأكثر من كاتب عربى يدرس « المسالك والممالك » أى الأقاليم والعلاقات الاقليمية . والأصطخرى - على سبيل المثال - لا يتقيد حتى بالحدود السياسية للقطر ويعنى بالوحدة الطبيعية ويجعل الخريطة أساس البحث ويقول « ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج اليه من علم (١) » . وهو يعنى بالعلاقات المكانية فيقول « وقصدت من كتابى هذا تفصيل بلاد الاسلام اقليما اقليما ، حتى يعرف موقع كل اقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الأقاليم (٢) » .

ولم تكن هذه الدراسات قائمة على مجرد جمع المعلومات ، وانما عنى البلدانون العرب بالرحلة والمشاهدة والخبرة الذاتية . وتبدو هذه الدراسة الميدانية فى احدى صورها النابضة بالحياة فيما وصف به المقدسى منهجه العلمى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »... « ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه ، وأقل سبب الا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فاتنظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما عايناه والثانى ما سمعناه فى الثقات والثالث وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب (٣) » .. ويلى هذا نص أدبى رائع فى بحثه الميدانى والتجارب الذاتية التى مر بها .

البحث عن الشخصية الاقليمية اذن عريق فى الجغرافيا ، عريق فى تراثنا العربى ، حى فى الجغرافيا المعاصرة . والجمع فى هذه الدراسة

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر العيشى ص ١٥ القاهرة

١٩٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤٣ - ٤٦ ط بريل ، لين

١٩٠٦ - أعادت طبعها مكتبة المثنى ببغداد .

بين القوانين الطبيعية والبشرية في وحدة جغرافية متناسقة ، اتجاه يشق طريقه بقوة في المدارس الجغرافية المعاصرة على اختلاف ايدولوجياتها - ويكفي في هذا المجال أن نرجع الى الحوار الخصب الذي يدور بشأنه في مجلتى حوليات الجغرافيين الأمريكيين والجغرافيا السوفيتية (١) .

ومثل هذا البحث بطبيعته بحث قمى - هو ذروة سنام الجغرافيا - وله أبعاد متشعبة .

١ - له أولا عمقه التاريخى الذى يضرب بجذوره ليجمع من التاريخ النماذج الموضحة للشخصية الاقليمية .

٢ - وله بعده المكانى الذى يمتد الى ما وراء حدود الاقليم ليتبين تفاعله مع الوحدات القريبة والبعيدة .. تفاعلا له طابعه على المكان ونبضاته التى تساعدنا على تحديد ملامح الاقليم .

٣ - وله تكامله الموضوعى - بين مكونات الاقليم نفسه - وهذه المكونات نسيج من عوامل طبيعية وبشرية . وهذا النسيج بدوره متتابع الصور .. وكل صورة سبب ونتيجة .. هى جغرافيا كاملة لها تفاعلها مع ما قبلها وما بعدها ..

من هنا يبدو تركيب البحث . وتبدو أهميته فى نفس الوقت . هى صعوبة بالطبيعة . لا تملك الجغرافيا ولا الجغرافى منها مهريا . فمهمته الأولى أن يجلى الاقليم فى صورته الكاملة .

(١) على سبيل المثال انظر :

Soviet Geography, Sept. 62, New York.

وبه عدة مقالات عن الوحدة والثنائية فى الجغرافية ونقد مفهوم الوحدة فى الجغرافيا .. والعدد كله مخصص لهذه المشكلة المنهجية .

وانظر ايضا بحث D.J.M. Hooson فى مجلة A.A.A. Geographers عدد مارس ١٩٥٩ وعنوانه :

Some Recent Developments in the content and Theory of Soviet Geography, pp. 73-82.

ترى هل كان أسلافنا من الجغرافيين العرب يحسون هذا عندما أطلق بعضهم على كته صورة الأرض كالخوارزمي أو صفة جزيرة العرب كالهمداني ؟

وإذا كانت الجغرافيا عملا علميا تركيبيا .. فهي أيضا عمل فني فليس هناك من فرق كبير بين تحديد ملامح شخص في لوحة فنية أو ملامح اقليم في بحث وخريطة . فأنت في الصورة تختار زاوية وتوزع أضواء وظلالا . وكذلك أنت في الاقليم لا تستطيع – عمليا – أن تصل فيه الى موضوعية خالصة . بل ان الموضوعية الخالصة هنا تكاد أن تكون ضربا من المحال .. أخشى أن أقول !! .

فمهما تكن موضوعية البحث ، فلن يملك الباحث الا أن يستقطب مجموعة من الحقائق المحدودة من آلاف من الحقائق .. منها ما يعرف وكثير منها يجهلها .. ومن منا يعلم أكثر مما يجهل ؟ ثم يحاول بعد هذا أن ينظم هذه الحقائق المختارة من معلوماته بمنهج معين ليقول بعد هذا أن هذه « شخصية السودان » أو « وجه السودان » .

ولكن لا بد من محاولات في هذا المجال .. وهي بطبيعتها ناقصة . ولن تكون الا كذلك ، متأثرة بوجهة نظر الكاتب ومدى ما يتوفر بين يديه من معلومات وتقييمه لهذه المعلومات ولا زالت مشكلة اختيار المادة التي تعتبر جغرافية من أعقد ما يقابل هذا العلم التركيبي في سيره الطويل ..

ولكن ما فائدته ؟

فائدته الأولى أنه في الجغرافيا هدف وقمة . هو محاولة لتلخيص شخصية الاقليم لتتجه الأبحاث بعد هذا الى زوايا يحتاج اليها ابراز هذه الشخصية . وهذه الزوايا – بدورها – تنتظمها – من بعد – أبحاث كلية تعيد تجميع الحقائق المتناثرة في وحدة علمية فنية . وهكذا يحدث اخصاب بين البحوث التفصيلية والشاملة .. بين البعد التاريخي

والواقع .. بين المحلية والعالمية .. وفي هذا عون على السير الى الجغرافيا التطبيقية والتخطيط الجغرافي .

فلتكن هذه المحاولة خطوة على الطريق . فيها كل ما في الخطوات الأولى من تصور وأمل .

١ - وسطية السودان

تدرج :

دولة تأتي في الحجم أول دول افريقية بمساحة قدرها $٢ \frac{1}{٣}$ مليون كيلو مترا مربعا . وتليها الجزائر والكونغو كينشاسا .. وهذه الثلاث في افريقية هي التي تزيد مساحة كل منها عن مليونين من الكيلو مترات المربعة ، (شكل ١٦) .

الا أن الجزائر اذا كانت تجمع بين اقليمي البحر المتوسط والصحراء واذا كان الطابع الاستوائي هو الغالب في الكونغو فان السودان يمتاز بين هذه الوحدات الضخمة بتنوع لا نظير له فيها جميعا :

فهو يبدأ شمالا عند خط عرض ٢٢ شمالا من الصحراء الخالصة حيث تتركز الحياة تركزا شديدا على جانبي النيل ، ثم يتدرج الى نطاق هامشي من المطر الصيفي تتكاثف فيه الحياة على النهر ، وتتناثر في غلالة رقيقة على جانبيه ، ثم تنضج الشائية من الاعتماد على المطر والنهر في السودان الأوسط حيث نطاق يعج بالحياة يمتد من أقصى الغرب حيث شواطئ المحيط الأطلسي الى اثيوبيا شرقا .. ويتعمق النيل بمنابعه جنوبا حيث منطقة السدود ثم يصعد الى الهضبة الاستوائية ومرتفعات تقسيم الماء بين النيل والكونغو ..

ففي الجنوب - في أوغنده - منطقة من المطر الدائم ، وفي الشمال صحراء خالصة ، وبين المطر الدائم والجفاف الدائم تتدرج الحياة وتتشابك .



شكل (١٦)

حجم منجمع :

هذا الحجم الضخم يمتاز بأنه حجم « منجمع » Compact أقرب ما يكون بمستطيل قليل الزوائد التي تبرز منه ، والاسافين التي تفرس فيه .

وإذا كان الشكل العام للوحدة السياسية في شرق القارة يتأثر في

بعض الوحدات بتوزيع وشكل التضاريس فيعطينا نمطا شريحا في الصومال وموزمبيق ، أو شريحا متعامدا على اتجاه الساحل - قزميا في الغالب - في غرب القارة ، أو متجمعا ولكنه صندوق رمال كالوحدات الداخلية في غرب القارة - تشاد والنيجر - ، فان السودان ظل بمنأى عن شريحية الشرق وقزمية الغرب و فراغ الدول الداخلية في الغرب . وله - الى جانب ذلك جبهة بحرية يتصل بها اتصالا مباشرا بالعالم الخارجى ..

وسطية مع النيل :

والنظرة الأولى الى الخريطة تبين أن النيل أبرز ملامح الحياة الطبيعية في هذا الحجم المتجمع .. انه كجبال الأطلس في الجزائر وكنهر الكونغو في الكونغو .. كل أولئك له الصدارة شكلا في قطره .. فهل هو كذلك موضوعا ؟

الأطلس هو العمود الفقري في الجزائر . ولكنه سلسلة فقيرية لا تقع في منتصف الجسم . والكونغو ليس بالنهر الذى تقوم عليه الحياة هناك ، رغم أن الدولة تحمل اسمه . أو هو يحمل اسم الشعب . هو هناك ظاهرة مكتملة للحياة وليس أساسا لها . طريق مواصلات ومجال صيد ومولد كهرباء . أما النيل فهو في أجزاء من السودان كل الحياة دون أن تعتمد عليه أجزاء أخرى .

النيل في السودان يعطينا بهذا مرحلة وسطى من التفاعل مع النهر في أرض النيل :

١ - ففى مصر : النيل هو الحياة . والتشابه واضح - من هذه الزاوية - بين وادى النيل الأدنى والأجزاء الشمالية من السودان بحيث يستطيع الانسان كما يقول المؤرخ الأمريكى ولسون « أن يقف واضعا احدى قدميه في الأرض الخصبة المزروعة بينما يضع قدمه الأخرى فوق رمال الصحراء الجدباء . فاذا ما ألقى بناظريه نحو وادى النيل أحس بضجيج الحياة وزحامها ، فاذا ما التفت نحو التلال لم تقع

عينه الا على فضاء واسع مقفر لا حياة فيه » ، ثم يقول عن مصر والقول هنا يمكن تطبيقه على شمال السودان « ان ذلك النهر العظيم هو الذى يمد مصر بأرضها ومائها الذى تحيا به ، ولو انقطع جريانه لجفت هذه التربة وأصبحت ترابا تذروه الرياح ، وتصبح مصر كلها واديا متسعا (جافا) لا يختلف عن وديان الصحراء الكبرى فى شمال افريقية (١) .

٢ - واذا كنا نعتبر النيل فى شمال السودان محور الحياة ، فان هذا المحور يتشعب فى منابه وفى السودان شكلا ، ويتغير مضمونه الوظيفى أيضا . فابتداء من خط عرض ١٧ شمالا تقريبا تبدأ روافد النيل فى الظهور : العطبرة ثم الأزرق بروافده الضخمة فى السودان واثيوبيا ، وفى النيل الأبيض بامتداده الجنوبى الذى تتجمع فيه المؤثرات الاثيوبية التى يحملها السوبات والاسنوائية التى يحملها بحر الجبل ، والموسمية التى تحملها مجموعة بحر الغزال . هنا التزام كبير للنهر فى أرض الجزيرة والنيل الأبيض ، وبعد عنه فى السودان الغربى . اعتماد كبير على النهر فى الوسط والشرق وعلى سواه فى الغرب . ولكن ، لنسر مع النيل جنوبا الى أرض السدود ، وفى الاسم دلالة : ان النهر أصبح عقبة بعد أن كان شريان الحياة .. والحياة تغص بالماء بعد أن كانت فى ظمأ اليه . النهر هنا عامل طرد سكانى بعد أن كان عامل جذب رئيسى . اذا فاض نأى عنه سكانه ، بينما يقبلون عليه فى الشمال . ثم يتوحد المجرى فى بحر الجبل الأوسط مع شدة الانحدار ومنطقة الانتقال من السدود الى هضبة البحيرات . وتعود الى النيل العاصمة جوبا .. عاصمة جنوب السدود تقابل الملكال شمالا وووا غربا .

٣ - فاذا ما اتجهنا من السودان شرقا وجدنا أودية الروافد النيلية عميقة واسعة . عمق يبلغ فى النيل الأزرق أحيانا نحو ألف وخمسمائة متر واتساع يتراوح فى المنابع العليا بين الخمسة والعشر كيلو مترات . والحياة هنا - كما فى أوغندة من بعض الوجوه - فى غنى بأمطارها عن

(١) ولسن ، جون : الحضارة المصرية ص ٢٦ القاهرة ١٩٥١ ترجمة احمد فخرى .

نهرها وان زاد الانتفاع به مع التطور الحديث هناك بحيث وصلت شبكة الكهرباء الى كينيا .

والأنهار في اثيوبيا كانت ولا تزال - الى حد كبير - فواصل طبيعية وعقبات في سبيل الاتصال السهل . والنيل - كنهري - في اثيوبيا عامل طرد سكاني ومدني بينما هو في مصر عامل جذب رئيسي وفي السودان - وسطية - بين الجذب والطردي تتدرج به الحياة والأحياء . أعانت على ذلك انحدارات الأرض من الجنوب والشرق والغرب فتكون حوض السودان .. ومن هنا تبدو ثلاثية أخرى :

(أ) فاذا كانت في أوغندا واثيوبيا مناطق الروافد .

(ب) وكانت مصر أرض المجري الواحد .

(ج) فان السودان يجمع بين ظاهرتي التعدد والوحدة .. وسطية أخرى في الجريان مع وسطية الاستفادة والاعتماد . ومن هنا يبدو جانب من الشخصية المائية أو الهيدرولوجية للسودان من حيث علاقاتها بدول النيل ، ارتباطا يحمل طابعي الاعتماد على النهر والمطر .

٢ - النيل والدولة

وقد ترك هذا أثره على الصورة السياسية للسودان فتنوعت فيه البيئات وتنوع اعتمادها على النهر ومدى اهتمامها بقضاياها .

١ - واذا كان هذا الارتباط الكامل في مصر بين النهر والحياة قد ترك طابعه القوي على الحياة المصرية من أقدم عصور حياتها - من تحويل مجرى النيل في عهد مينا - وما قبل ذلك - الى بناء السد العالي - فان ابراز هذا الطابع يفتح مجالا واسعا للمقارنة بين أنماط الحياة في أرض النيل .

ففي خلال التأريخ المصري الطويل لم يتم فيها أى كيان سياسى بعيد عن النهر . وقد تكون هذه الظاهرة أوضح من أن تذكر ، ولكنها في مجال المقارنة عميقة الأثر . وذلك لأن الحياة في مصر ترتبط أولا

بوجود النهر ، وثانيا بنظام فيضانه ، بحيث لا تستطيع الجهود الفردية غير المنظمة أن تقابل تحدياته . من أجل ذلك عرفت مصر من قديم وحدة الشعب والدولة . واجتاحت الحكومة في تنفيذ مشروعاتها الى أن تجمع في يدها سلطانا قويا وجهازا اداريا ينتشر مع ترع النهر بضبط الأمن ويرقب المحصول ويجبى الضرائب . ومن قديم ارتبط رجل الأمن بمهندس الري بجابى الضرائب .. ثلاثية قديمة في مصر حملت أكثر من اسم ولها انعكاساتها في تاريخ مصر الطويل (١) .

وقد ترتفع فاعلية هذه الثلاثية ايجابيا الى درجات عالية من الكفاءة والرقى الاجتماعى . ولنا في هذا أن ننظر الى وصف مصر كما رآها ابن جبير الأندلسى عندما زارها في عهد صلاح الدين الأيوبي - وكانت رحلته من الاسكندرية الى القاهرة الى الصعيد الى عيذاب الى البحر الأحمر في طريقه الى الحج .. يقول « وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف البتة .. (٢) » وقد تهبط الى درك خفيض من البؤس والمجاعة . ولعل من أوفى النماذج في هذا ما جاء في كتاب « اغاثة الأمة بكشف النعمة » لتقى الدين المقرئى . وهو الكتاب الذى يدرس فيه تاريخ المجاعات في مصر ، ويردها الى أسباب بشرية علمية ويلقى العبء الأكبر فى مسئوليتها على نظام الحكم لا على ظاهرات البيئته . والمقرئى بهذا رائد من رواد « الامكانية » التى تنفى صرامة الحتم الجغرافى (٣) .

٢ - فإذا ما انتقلنا الى اثيوبيا وجدنا اعتمادا رئيسيا على المطر . والمطر بطبيعته - لا يحتاج فى انزاله الى جهاز حكم مركزى أو سلطة

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٥١ - ٥٤ القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) ابن جبير الأندلسى : رحلة ابن جبير ص ١٠ القاهرة ١٩٥٥ - تحقيق حسين نصار والوظيفة - فى النص الوارد بالمتن - ما يفقد للانسان فى اليوم أو الشهر أو السنة من طعام أو رزق أو نحوه (انظر حاشية المحقق فى نفس الصحيفة) .

(٣) تقى الدين أحمد بن على المقرئى : اغاثة الامة بكشف النعمة أو تاريخ المجاعات فى مصر - انظر ص ٢٨ - ٣١ عن وصف مجاعة ٥٩٦ هـ - ١٢٠٠ م ودراسة المقرئى لأسباب المجاعات - أو الغلوات كما يسميها فى ص ٤١ - ٦٢ تحقيق بدر الدين السباعى حمص ١٩٥٦ .

حكومية - وحديثنا في هذا المجال لا يعرض للمطر الصناعي . فاذا أضفنا الطبيعة الجبلية في اثيوبيا ، وفعل المجارى المائية في تقطيع سطح الجبشة الى مناطق ، تعتبر الأخاديد النهرية فيها خطوط دفاع ، وجدنا أن جمع اثيوبيا تحت سلطة مركزية تخضع لها جميع الرؤوس الحاكمة ، أستغرق قرونا ومحاولات ، حتى أصبح حقيقة واقعة ، تعتمد على شبكة جديدة من المواصلات البرية ثم الجوية .

٣ - والنظام الأوغندي الاستوائى قريب في أسبابه ونتائجه ومختلف في بعض تفاصيله - عن النظام الاثيوبى : ففى منابع النيل الاستوائية قامت ممالك لا تزال بعض آثارها باقية في نظام الحكم : الباغنده والبانانكولى والبانوروك الخ ..

٤ - أما السودان ففيه أكثر من نواة حضارية : ولنرجع الى ما قبل تحديد الحدود الحالية في أواخر القرن التاسع عشر .. بل الى ما قبل القرن التاسع عشر عندما كان التفاعل في الأرض التي عليها السودان ، يرجع أكثر ما يرجع الى مقومات محلية لها ارتباطاتها الحضارية الخارجية .

وسنرى ثلاث نويات حضارية رئيسية :

(أ) نواة قامت عليها سلطنة الفونج السنارية .

(ب) نواة قامت عليها سلطنة دارفور .

(ج) نواة شمالية من مجمع النيلين شمالا في النيل النوبى .

وهناك فروق في الموقع وأوجه تشابه وتباين . ولو رسمنا مثلثا رعوس زواياه في مناطق سنار ودارفور والنيل النوبى لكان ملتقى النيلين - الأبيض والأزرق - بصفة عامة في وسط هذا المثلث .

طبيعة الحضارة في القطاع الشمالى كثيرة الشبه في ظروفها الطبيعية بوادى النيل الأدنى وان قطعنها الجنادل الى أوطان صغيرة يجمع بينها النيل كحبات في عقد . وهم هيئة Landscape طبيعى يساعده على

قيام أكثر من دولة وأكثر من عاصمة ومركز حضارى . هل نذكر كوش ونباتا والمقرة وعلوة ؟ وخضا من المراكز الأثرية ينتظم المنطقة من الشلال الأولى الى مجمع النيلين تعاصرا وتتابعا ؟ (١) .

ونواة أخرى ازدهرت فى سلطنة الفونج حيث الحياة تفاعل بين المطر والمياه الجارية . أما سنار فيرجع اختيارها كقاعدة للحكم الى أسباب : فى مقدمتها موقعها الاقليمى الاستراتيجى فى قلب القطاع الشرقى من السودان . ويسيطر موقع المدينة على الطرق النيلية والقوافل وفيه يلتقى تجار يحملون سلع مصر والشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع وأثيوبيا (٢) . والامتداد الرئيسى للفونج كان الى الشمال الغربى على محور النيل ، وان حدث توسع الى الشرق والغرب والامتداد ، فى غير الشمال ، لم يبعد بها عن المجال النيلى .

هذا بينما كانت كتلة جبل مرة ، نواة سلطنة الفور ، حيث يتوفر الماء والحماية . ويقول محمد بن عمر التونسى عن هذا الجبل فى رحلته ، « هو جبل يشق اقليم الفور من أوله الى آخره مع الاستقامة ، وله عدة طرق تصعد الناس منها اليه ، ولكل قطعة منه اسم خاص به غير الاسم العام . والفور يسكنون أعلاه ، ولا يألفون الوهاد . بل يرون أن ذلك أصون لهم ولأموالهم (٣) » .. « وفى هذا الجبل أمم وعالم لا يحصى كثرة ، وفيهم القبيلة المعروفة بالكنجارية التى ينسب اليها سلطان دارفور . وفى هذا الجبل كهوف عديدة ، تحبس فيها أولاد الملوك ، وأخرى لحبس الوزراء (٤) » والذى يعيننا ارتباط البيت الحاكم

(١) انظر هذا الموضوع :

Arkell, A.J. : A History of the Sudan, from the Earliest Times to 1821, London, 1955.

والخرائط المتتابعة تاريخيا من ٢ الى ١٠ بادنه من قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد الى الثامن عشر الميلادى .

(٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ السودان وادى النيل ص ٢١ - ٢٢ القاهرة ١٩٥٥ .

(٣) محمد بن عمر التونسى : تشييد الانهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٦١ تحقيق خليل عساكر ومصطفى سعد القاهرة ١٩٦٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٥٢ .

بالجبل كمنطلق ومأوى . وان كان الحديث عن أصل البيت الحاكم ومصدره لا زال محل دراسة .. شأنه شأن البيت الذي أسس سلطنة الفونج (١) .

والقد كان لكل من الدولتين صلة قوية بمصر . وكانت تصل الى المحروسة - القاهرة - كل عام قوافل دارفور وسنار ويعطينا هنا التونسي أيضا صورة نابضة بالحياة عن عمق هذه الروابط وهو يتحدث عن أسرته : المنشأ في تونس ، والأب في دارفور ، وبعض أهله في سنار ، واللقاء في القاهرة ، بعد العودة من الحجاز وأداء فريضة الحج (٢) .

وهذه الوجهة الشمالية والارتباط بوادي النيل الأدنى في مصر كانت متكاملة مع روابط أفقية أخرى بين قطاعات النطاق الرعوى جنوب الصحراء .. وروابط تمتد ما بين المحيط الأطلسي وتعتبر المرتفعات الشرقية - في اثيوبيا وما وراءها جنوبا - الى عالم المحيط الهندي المفتوح على الشرق الأقصى . وكما كانت القوافل تسلك هذه الطرق الأفقية ، فقد كانت تخترق الصحراء الى أكثر من مكان ، رابطة المنطقة كلها في نسيج حضارى كبير ، اذا تباينت بيئاته محليا ، فقد كانت لها خصائصها العامة من الحضارة العربية الاسلامية (٣) (شكل ١٧) .

(١) انظر دراسة لهذا الموضوع في

Crawford, G.G.S. : The Fung Kingdom of Sennar, pp. 134-142, Gloucester, 1951.

والشاطر بصيلى عبد الجليل (١٩٥٥) ص ٢٠ - ٣٥ .

(٢) التونسي : المرجع السابق ص ٣٢ .

(٣) عن

Fage, J.D.L. : An Atlas of African History, map 13, p. 17, London, 1958.

وانظر أيضا في الروابط الأفقية على امتداد النطاق السودانى ما بين المحيط الاطلسي والمحيط الهندي

Davidson, B. : Old Africa Rediscovered, Chap. III, pp. 61-116, dealing with "Kingdoms of the Old Sudan" map 2, p. 63, London, 1961.

وللكتاب ترجمة عربية مع اضافات قام بها جمال محمد احمد بعنوان : افريقيا تحت

أضواء جديدة بيروت ١٩٦١ .

والتي تتجه أكبر المشروعات ، فان هناك في السودان « دلتا جنوبية » أخرى في منطقة السودان - زراعية رعوية - يمكن بالتطور العلمي أن تصبح الركن الحضاري الرابع ومنه تنطلق اشعاعات حضارية الى كل ما حوله من أرض السودان (١) . وبهذا يبدو ارتباط السودان المتزايد بمشروعات النيل وتأثير ذلك على اقتصاديات السودان ووزنه السياسي . ومع هذا فلا يزال هناك جزء كبير في السودان يعتمد على المطر ، وعلى وسائل التخزين المحلية من الحفائر والفولتات والصحاريج ، وستظل هذه الثنائية من الاعتماد على المشروعات والمطر ولها انعكاسها على مدى الترابط بين أجزاء السودان والعلاقة بين المركزية ونظم الحكم المحلية .

وهذا التنوع يمكن أن يكون مصدر اثراء وصمام أمان ، ولا زالت معادلة « القطن - الصنع » لها وزنها في الاقتصاد السوداني : تزداد العناية بجمع الصنع مع قلة محصول القطن . فالنيل وضبطه - مع أهميته - ليس المحرك الوحيد للحياة في السودان . ومع التنمية ستظل الثنائية « النيل - المطر » أثرها في توازن الحياة السودانية . ثنائية هي بدورها وسطية جغرافية بين النظامين الأوغندي والمصري .

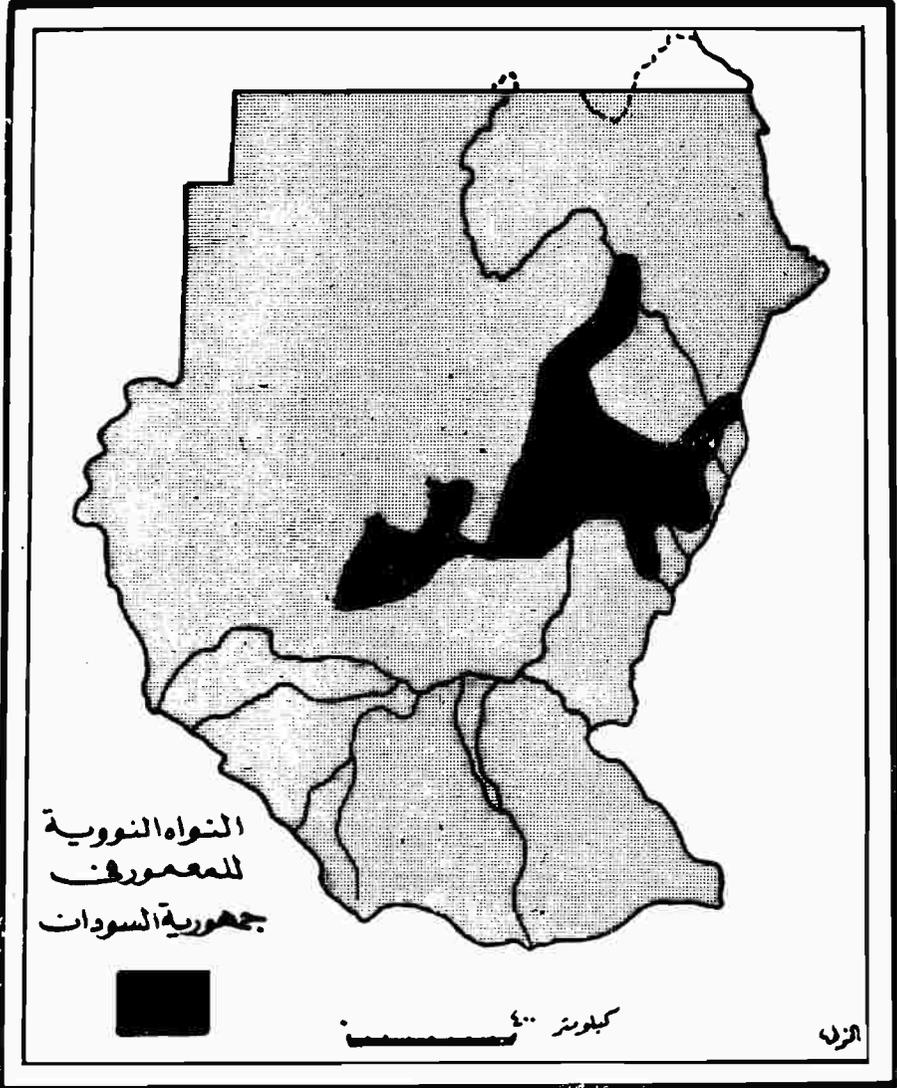
٣ - العمور والدولة

المحوران الرئيسيان لتوزيع السكان في السودان هما : المحوران النيلى والمحور الرعوى أو النطاق السودانى . وحيث يلتقى المحوران نرى مركز الثقل الاقتصادي والسكانى في السودان في أرض الجزيرة . ومناطق لتخلخل السكانى - اذا استغرنا تعبير ددلى ستامب - هي صحراء الرمال في الشمال ، وصحراء الغابة في الجنوب ، ويمكن أن نضيف إليها صحراء المستنقعات في اقليم السودان . وليس في السودان تركيز سكانى على الأطراف . وانما يمتاز بكتلة

(١) لعل اوفى ما كتب في هذا الموضوع :

The equatorial Nile Project and its effect in the Anglo-Egyptian Sudan, being the Report of the Jonglei Investigation Team.

متناسكة من المعمور في النطاق الأوسط وبخاصة في التقاء المحورين النيلى والسودانى ومن حولها غلالة من التخلخل السكانى تبرز فيها خطوط من التكتائف الذى تتجمع حوله الحياة . وأهم هذه الخطوط المحور النيلى فى أقصى الشمال والجنوب ومناطق الاستقرار فى أطراف السودان الشرقية والغربية وتصل بينها وبين نواة المعمور شبكة مواصلات آخذة فى القوة والامتداد (شكل ١٨) .



شكل (١٨)

هذا هو النمط العام الذى يتوزع به سكان السودان الذين ارتفع عددهم الى نحو أربعة عشر مليوناً (١٩٦٨) .

ومركز السودان السكانى فى افريقية يأتى بعد نيجيريا ومصر واثيوبيا وجنوب افريقية والكونغو كينشاسا . واذا كان السادس فى الترتيب العام لافريقية فهو الرابع فى افريقية المدارية .. والى شرقه اثيوبيا والى غربه الكونغو ونيجيريا . فالسودان بموقعها تكاد أن تتوسط الوحدات المدارية الكبرى وتتشترك فى حدودها مع اثنتين منها . فاذا أضفنا الى الامتداد الطبيعى الوزن السكانى ، استطعنا أن ندرك أهمية السودان « بالموقع » « والعلاقات المكانية » كما هو بالسكان والعمران .

موقع المعمور :

ولهذه النواة المعمورة فى قلب السودان مزاياها ولها أيضا مشكلاتها ..

١ - فمناطق التركيز السكانى بطبيعتها تساعد على قيام وحدات سياسية مستقرة - ولنا فى هذا أن نتذكر النويات الحضارية التى استطاع مجمع النيلين أن يستقطبها - بالاضافة الى نويات التنمية المنتظرة - بينما مناطق التناثر السكانى لا تساعد بطبيعتها على قيام وحدات سياسية كبيرة .

٢ - واذا نظرنا الى العلاقات الرأسية والنيلية من حيث توزيع المعمور وجدنا ثلاث نويات رئيسية : أولاهما ، فى وادى النيل الأدنى - مصر - والثانية ، فى السودان الأوسط ، والثالثة فى منابع النيل الاستوائية .. وبين الكتل الثلاث نطاقات من التخلخل السكانى فى النيل وبحر الجبل . وهذه المناطق اذا ما كانت تعبرها الحدود ، فان قلة سكانها قد تدعو الى قيام مشكلات بشأنها : اذ قد تعتبرها الكتل المعمورة مجالات امتداد . وقد تدعو - أحيانا - الى اضعاف الروابط الحضارية اذا ما طالت طرق الاتصال . بل قد تدعو الى قيام حدود

ادارية وسياسية . والعكس صحيح : فان الحدود اذا ما كانت تمر في أجزاء من المعمور ، فانها قد تفصل بين بطون وعشائر من قبيلة أو شعب واحد ، وقد يكون هذا ماثرا لصور من النزاع .

٣ - فاذا ما اتقلنا من التأصيل النظرى الى التطبيق العملى وجدنا أن الأجزاء الشمالية من المحور النيلى في السودان والجنوبية في مصر تعتبر - جغرافيا - مناطق طرد سكانية ، لا تستطيع بضوابطها الجغرافية الحالية - أن تتحمل الا عددا محدودا من السكان ، وليس أمام الباقين الا الهجرة . والهجرة هنا تتجه أكثر ما تتجه الى الكتل المعمورة على المحور النيلى وفي النطاق السودانى الأوسط . من هنا لم يكن في نطاق التخلخل السكانى بين مصر والسودان انطوائية تنأى به عن أحدهما أو كليهما . بل كان من عوامل الربط الحضارى بين الشمال والجنوب . والأسرة الواحدة قد يكون موطنها الأول في ديار النوبة ، وأبناؤها منتشرون على النيل شمالا وجنوبا . وفي النطاق السودانى شرقا وغربا . ونستطيع أن نرى هجرات على مستوى القبيلة ما بين قطاع التخلخل الشمالى والسودان الأوسط .. ساعد على هذا وحدة الدين واللغة العربية كلغة أم ، لها مكائتها فوق اللهجات المحلية.

٤ - وتختلف الصورة في بعض تفاصيلها اذا ما اتجهنا جنوبا . ولنأخذ مثالا من اقليم الزاندى (١) . فمن طبيعة اقليم السدود في السودان وقلب حوض الكونغو أن يدفع سكانه من المنخفضات الى المرتفعات حيث الفاصل المائى بين النيل والكونغو . وهو منطقة جذب سكانى تتطلع اليها أنظار سكان القيعان في اقليمى السدود والكونغو من أجل ذلك اجتذب الزاندى ليستوطنوه من قديم . حدث هذا من قبل أن يأتى مخطوط الحدود ليجدوا هذا الفاصل المائى أنسب مكان ليعضوا حدودهم بين السودان والكونغو كتشاسا وجمهورية افريقية

(١) محمد عوض محمد : العرب والسلالات الافريقية شكل ٤ مقابل ص ١٩٢ القاهرة ١٩٦٥ وفى الدراسة الوصفية لوطن الزاندى انظر ص ١٨٨ - ١٩٠ .

الوسطى ، شاطرة أوطان الزاندى الى ثلاثة قطاعات . فاذا أضفنا الى ذلك أن هذا الاقليم - بموقعه الجغرافى - داخلى وله - مع ذلك - روابطه الحضارية بأرض النيل وشرق وغرب أفريقية (١) ، استطعنا أن ندرك جانبا من التباين بين مشكلات الحدود من حيث علاقتها بالمعمور اذا ما قارنا بين الشمال والجنوب الغربى .

٥ - وهذه الصورة يمكن أن نجدها ، بتكثيف أقل ، فى القبائل الموزعة عبر الحدود فى الجنوب والجنوب الشرقى كالأنوك فى حوض نهر اكوبو - بين السودان واثيوبيا - والاتشولى بين السودان وأوغنده .

٦ - أما فيما بين السودان واثيوبيا فيبدو تأثير مغاير لتوزيع المعمور : ذلك لأن كتلة المعمور الاثيوبى متأثرة أساسا بتوزيع الرياح وسقوط الأمطار والحياة النباتية هناك .. والرياح السطحية الممطرة - الى ارتفاع ٣٠٠٠ مترا - تهب من الجنوب الغربى . أما فى الكيلو متر الرابع فتهب - فى فترات المطر الغزير من الشرق الى الغرب . والذى يعنينا - فى هذا المجال - أن كتلة المعمور الاثيوبى مواجهة للسودان غير بعيدة عن كتلته .. والنطاق بينهما غنى بحياته النباتية .. وحركات القبائل والعشائر فيه دائمة .. هذا فضلا عن تباين طبيعة المعمور الاثيوبى الجبلية ، عن المعمور السودانى السهلية ، وما ترتب على ذلك من تباين حضارى سنشير اليه بعد قليل ، فاذا أضفنا الى ذلك أن كلا من الدولتين من دول الأركان فى افريقية ، استطعنا أن نتصور حساسية حركة القبائل عبر الحدود فى منطقة غنية بنباتاتها فوقها الجبل ودونها السهل .. وهذه الصورة من التفاعل توجد بدرجة محدودة فى الحدود الغربية .

Seligman, C.G. : Egypt and Negro Africa, London, 1934.

(١)

فى ص ١٢ يدرس القيثارة عند الزاندى ووجه الشبه بينها وبين ما فى حوض الكونغوومصر القديمة ويعود الى دراستها فى ص ٦٥ وهو فى ص ١٢ وما بعدها يعرض المناطق التى استمد منها أدلته على الروابط الحضارية وادى النيل جنوب الخرطوم واجزاء من شرق وجنوب افريقيا ونيجيريا وما جاورها فى غرب افريقيا .

فالقضية في المعمور السوداني اذن لا تقتصر على وضعه بالنسبة الى الحدود السياسية للسودان ولكن بالنسبة الى توزيع المعمور في الدول المحيطة به وطبيعة مناطق الحدود .. وهي أمور لا يمكن مقابلتها في افريقية الجديدة الا بروح من التعايش والتعاون . روح تحترم الحد ولا تجمد الحركة .

الانحدار السكاني : Population gradient

جانب آخر من العلاقة بين السودان وما حوله يبدو في الانحدار السكاني . فاذا ما كانت الدولة العادية - نظريا - تتكافأ سكانيا مع كل جارة لها . وأن الدولة تحاط بنحو أربع أو خمس من جاراتها ، فلعل من المناسب أن نعتبر الدولة التي تحيط بها من الجيران ما يعادل أربعة أو خمسة أمثال سكانها هي دولة سليمة من ناحية الحجم النسبي (١) . وان كان هذا المعدل يمثل أقلية نادرة في افريقية ، بينما الأغلبية تهبط دونه بكثير .

على هذا الأساس يمكن أن نميز في افريقية بين ثلاثة أنماط : الانحدار الموجب والمتكافئ والسالب . ولا تدخل السودان في مجموعة الدول الموجبة الانحدار والتي تأتي في مقدمتها نيجيريا وتليها مصر وجنوب افريقية . كذلك لا تأتي في المجموعة المتعادلة ، وانما تأتي في أوائل المجموعة السالبة الانحدار حيث نسبة السكان الجيران الى الوحدة ٦٥ (٢) . ولكن هذه النسبة تحتاج منا الى توقف قصير . فعدد جيران السودان ثمانية وهو رقم مرتفع ليس فوقه في افريقية الا الكونغو كينشاسا بتسع جارات . هذا فضلا عن مجاورة السودان لثلاث من دول الأركان في افريقية : مصر واثيوبيا والكونغو . لعل هذا هو الذي هبط بالانحدار السكاني الى مجموعة الدول السالبة ، بينما

(١) جمال حمدان : افريقيا الجديدة : دراسة في الجغرافيا السياسية ص ١٠٢ القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ .

ارتفع بغانا الى مجموعة الدول الموجبة حيث عدد جاراتها ثلاث وسكانها سبعة ملايين .

دلالة هذا الانحدار اذن نسبية وهو يفسر لنا - فيما يفسر - مع امكانيات السودان - قوة جذب السكانية لوافدين من حوله ومن الغرب بخاصة . واذا ما كان النيل يجرى من الجنوب الى الشمال ، ففي النطاق الرعوى نهر بشرى يجرى من الغرب الى الشرق لينتهى في الأرض المقدسة ، ويفيض هذا النهر قبل موسم الحج ، ويكون - في جريانه - جزائر سكانية في أرض السودان ، نستطيع أن نراها في كردفان ، ويكبر حجمها في أرض الجزيرة حيث قرى يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف (مايرنو كنموذج) ثم تتناثر جزائر في الخرطوم والبطانة وكسلا وتعود الى التجمع في بور سودان ، حيث تعبر البحر الى الأرض المقدسة .. وهذا النهر البشرى له أيضا رواجع بعد الرحلة ، تجذبها الجزائر السكانية وهي في طريق العودة .

هل نرى هنا مرة أخرى وسطية جغرافية للسودان بين غرب افريقية والأرض المقدسة ؟

٤ - الأمة والحضارة

الوحدة في التنوع :

أود أن أعود عند هذه المرحلة من الدراسة الى هارتسهورن مرة أخرى وتعريفه الجغرافيا بأنها علم التباين الأرضي ، وكيف أن الرغبة في معرفة التباين لا تقل أهمية عن الرغبة في معرفة أوجه الشبه بين مناطق قد تكون متناحية من حيث الموقع . ذلك لأن الدراسة الدقيقة بين أى اقليمين متشابهين ، أو جزءين من اقليم ، لا يمكن أن تظهر تشابها كاملا بينها . فنحن حينما نتحدث عن التشابه فنحن عمليا - نتجاوز عن بعض الفروق . لك أن تقول هذا على موضوعات الجغرافية الطبيعية والبشرية . فالفرق موجودة بين المناطق التي تقول

عنها أنها متشابهة .. ومن باب أولى في المناطق التي تقول عنها أنها متباينة .. الفرق بين الاثنين فرق في الدرجة لا في النوع . فاذا زادت الفروق قلنا بالتباين ، واذا قلت قلنا بالتشابه . ولو شئنا قول هارتسهورن لوجدناه « ليس التشابه تقيص التباين وانما هو مجرد تعميم يتجاهل بعض الفروق الصغيرة بينما يؤكد الفروق الكبيرة (١) » .

وكما يقول هنتر أن العلاقات أو الروابط السببية بين الظواهر الجغرافية نوعان :

- (أ) العلاقات المتبادلة بين ظواهر مختلفة في مكان واحد .
(ب) العلاقات أو الارتباطات بين ظواهر من أماكن مختلفة .

وهذا القسم الأخير يقتضى تحرك هذه المؤثرات عبر البقاع أو المناطق . فالماء والهواء ... وبالطبع الحيوانات تنتقل من مكان الى آخر ، وتؤدي الى تفاعل متبادل بين الأماكن . فاذا ما أدخلنا الانسان مسرح الأحداث فان هذا العامل الفعال (الديناميكي) سيصبح أكثر أهمية .. ذلك لأنه غير متحرك بذاته فقط وانما يدفع غيره من الأشياء الى الحركة أيضا . ومن هنا لا تتباين البقاع في هيئتها فقط ولكن - فيما سماه ريتز - وظائفها العضوية ؛ ويمكن بعدا عن اللبس - أن تقول « علاقاتها الوظيفية » وتقصد به حركة هذه العوامل (٢) .

ذكرت هذا المدخل المنهجي عند دراسة الأمة والحضارة لأنه من الممكن في دراسة أى قطر من الأقطار - مهما كان صغر مساحته - أن تجد جوانب من الفروق بين أجزائه .. فالتشابه الكامل معدوم حتى بين شقى الانسان نفسه !! ..

ومن هنا يبدو الفرق بين دراسة الظاهرة وتوجيه الظاهرة . وهذا

(١) هارتسهورن (١٩٥٩) ص ١٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩ .

التوجيه يمكن أن يبرز ويؤكد جوانب التباين في قطر من الأقطار ،
تعميقا للأخاديد في حياته ، ويستطيع أن يؤكد جوانب التشابه ، تاركا
أوجه الاختلاف لتعايش وتكامل و « علاقات وظيفية » .

وهذه الرفوف أشبه ما تكون بصخور يحملها النهر في تياره . هي
في أول أمرها ذات زوايا حادة ، خادشة ، دامية . فإذا ما طال سيرها
في نهر الحياة ، زالت زوائدها ، واستدارت جوانبها ، فأصبحت لينة
الملمس . فإذا ما طال بها المدى تضاءلت ثم أرسبت على الأرض تحمل
الخصب والنماء . انها قد تحفظ بكثير من مميزات الكيمائية ولكنها
- ميكانيكيا - شيء جديد له وظيفة جديدة .

وفي دراستنا السودان : اذا كان الحجم والامتداد والتجمع
والوزن السكاني من ركائز الحياة فيها ومقوماتها ، فانها تحمل تحديات
على السودان أن يتغلب عليها وهو في تدفقه التاريخي .

تعدد السلالات ، تباين الميراث التاريخي ، تباين البيئات والحرف ،
كل أولئك من مسؤوليات الحجم الكبير الذي لا تتجو منه ولا تنأى
عنه دولة كبيرة :

على المستوى العالمي : هناك ثنائية الثقافتين الفرنسية والانجلو
أمريكية في كندا . فإذا ما اتجهنا جنوبا وجدنا عالما من الثنائيات
والمتناقضات في الولايات المتحدة الامريكية : الشمال والجنوب ،
البيض والملونون ، البروتستانت والكاثوليك ، الجمهوريون
والديموقراطيون . ولنتابع الرحلة جنوبا الى امريكا اللاتينية حيث
الأسبان والبرتغال والخاصيون والزنوج والهنود الأمريكيون : غابة
انسانية فيها سلالات وفدت من جبهة عريضة تمتد من جزائر اليابان
الى الجزائر البريطانية فضلا عن جاءوا من امريكا الشمالية وافريقية ..
وتكفي البرازيل نموذجا .

وعلى المستوى الأفريقي عندنا في نيجيريا ثلاثية : الحوصا والفولا

المسلمون في الشمال ، الايبو بدياناتهم التقليدية والمسيحية في الجنوب الشرقي ، واليوروبا بأغليبتهم المسيحية في الجنوب الغربي . هذا مجرد نموذج لمسا في النطاق السوداني ، وهو بدوره - كنطاق - مجرد مثال .

لا مندوحة اذن من وجود المشكلات . واذا كنا نراها في « العالم الجديد » ، فهي أكثر توفرا في عالم له عمقه الحضارى القديم ، والاحساس بالذات الذى يتوفر في قومياته ، ومكونات هذه القوميات في آسيا وأوروبا وافريقية .

واذا ما كانت هذه الحقائق البشرية تتخذ ذريعة لتعميق الفروق وزرع الأحقاد ، فان أولى الدول بالتمزيق هي كبرها في عالمنا المعاصر . ولك أن تحصى عدد القوميات والسلالات والطوائف في كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية .

واذا ما كانت الفروق الحضارية مدعاة الى الفرقة ، فالأولى اتخاذ الفروق الطبيعية ذريعة .. واذا ما كنا نعتبر الجزيرة وحدة طبيعية فلك أن تتصور تطبيق هذه القاعدة على جزائر اليابان وأندونيسيا والجزائر البريطانية !!..

ليس من الغريب اذن أن توجد في السودان مشكلات حضارية ، بل الغريب ألا توجد فيه مشكلات .. وأين القطر الذى يخلو منها ؟ وهل تفكير افريقيا ذات ال ٢٦٥ مليونا هو تفكيرنا وهى في طريق النضج الاقتصادى والحضارى الذى قد يصل بسكانها الى الألف مليون ؟.

الحضارة والمداخل :

ولننظر الآن الى السودان باعتباره مجال الالتقاء بين المحورين النيلي والسودانى على أساس مقارن :

١ - ففي أقطار النطاق السوداني الغربي - بخاصة - نلاحظ ثنائية لا نكاد نخطؤها بين الشمال والجنوب . فالى ما وراء الصحراء يبدأ نطاق الساحل فالسودان فغانة .. وفي نطاق الساحل والسودان تسود الحضارة العربية الاسلامية . يلي هذا منطقة تخلخل سكاني وزهو حضارى تقليدى . ثم تبدأ منطقة ارتفاع حضارى على ساحل المحيط حيث العواصم الجديدة .

ففى غرب افريقيا قمتان - أن قطبان - حضاريان : قطب اسلامى عربى شمالى وقطب زنجى جنوبى . واذا شئنا الاصطلاح الذى أطلقه البلدانيون العرب على هذا القطاع لوجدناه السودان مع تمييز بين أجزائه (١) . أما المنطقة الوسطى فكانت مجال تنازع بين القطبين الشمالي والجنوبى .

ولقد كان دخول المؤثرات العربية والاسلامية من الشمال .. عبر الصحراء أساسا . فان كان الانبعاث الأول للاسلام من قلب الجزيرة العربية ، وكانت الروابط ولا تزال قائمة بين هذا القلب وكل أجزاء العالم الاسلامى ، الا أن الذى حمل رسالة الاسلام والعروبة لم يكونوا كلهم من العرب ، وان كانوا جميعا من المسلمين . وانتشار الاسلام كان أقرب ما يكون الى سباق التتابع (٢) . يحمل المشعل جيل من المسلمين من موطن ليسلمه الى جيل آخر فى موطن جديد .. من قلب الجزيرة العربية يحملونه الى مصر والمغرب . ويحمله أهل المغرب الى الصحراء ويحمله هؤلاء وهؤلاء الى غرب افريقية . ثم يحمله أبناء الغرب الى أعماق القارة ..

من أجل ذلك لم يكن انتشار الاسلام يحمل هنا معنى السيادة أو النوفود - وان قامت من أجله حروب - ولم يكن يخضع بعد مرحلة

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى : ٢٣٥ - ٢٥٣ تحت عنوان : ذكر السودان وانسابهم . القاهرة . ط . البهية ١٣٤٦ هـ .
(٢) جمال حمدان ١٩٦٦ ص ٢٧٠ .

الانطلاق الأولى لسلطة مركزية ، وانما أصبح التفاعل فيه « افرقيا » بين أبناء القارة . وكان دخوله صوب الصحراء على جبهة تمتد من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي وكانت القوافل تحمل التجارة والحضارة في اتجاهات ثلاثة رئيسية :

(أ) اتجاهات أفقية تربط ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر وعالم المحيط الهندي .

(ب) اتجاهات رأسية تربط بين النويات الحضارية المتقابلة في نطاقى البحر المتوسط والسودان .

(ج) اتجاهات قضرية تربط بين أركان الاطار الضخم المحيط بالصحراء الكبرى . (عودة الى شكل ١٧) . ونستطيع أن نتبع هذه الدراسة في تطورها التاريخي ومداهها الجغرافي عند بوثيل (١) وفي أطلس فيج (٢) على سبيل المثال كما كانت - من قبل - محل عناية البلدانين والمؤرخين العرب كالقشندى (٣) وابن بطوطة (٤) والبكرى (٥) كما غنى عبد المجيد عابدين - أساسا - بالروابط الحضارية النيلية - بين مصر والسودان (٦) .

كانت المؤثرات العربية الاسلامية تأتي اذن من مدخل رئيسى الى النطاق السودانى ، هو المدخل الشمالى . وكان هناك تفاعل بين المدخلين الشمالى والشرقى ، بين الاسلام البرى والاسلام البحرى : الأول حمله الرعاة ورجال القوافل ، والثانى حمله عرب الجنوب في

Bovill, E.W. : The Golden Trade of the Moors, London, 1961. (١)

Fage, 1958, op. cit. (٢)

(٣) القشندى ، ابو العباس احمد : صبح الاعشى ج ٥ ص ٦٢ ط دار الكتب المصرية . القاهرة . ١٩٢٠ .

(٤) ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد : مهذب تحفة النظار في غرائب الامصار ... ط . القاهرة ١٩٣٤ .

(٥) البكرى ، أبو عبيد الله : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . تحقيق دى سلفين ط . باريس ١٩١١ . وانظر عنايته بذكر المسافات في بلاد السودان ص ١٧٢ - ١٨٢ .

(٦) عبد المجيد عابدين في تحقيقه وتمحيبه على كتاب القرزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب . ط القاهرة ١٩٦١ .

رحلاتهم البحرية .. والتأثير الشمالى قاسم مشترك بين أقطار النطاق
السودانى أعطى ما وراء الصحراء صبغة ثقافية مشتركة .

٢ - أتى التباين بعد هذا من توزيع اليباس والماء فى افريقية :
اليابس الافريقى فى غرب القارة ينتهى حول خط عرض ٥ شمال خط
الاستواء ؛ بينما اليباس فى شرقها يمتد الى خط عرض ٣٥ جنوبا .
فرق بين الشرق والغرب مقداره أربعون درجة .. فعندما أراد
البرتغاليون الدوران حول افريقية ، وجاءت من بعدهم شعوب أوربية
أخرى - كان ساحل غانه من الجهات الافريقية الرئيسية التى امتدت
اليها أيدي الأوربيين استغلالا هدميا . وفيها حدث جانب ضخيم من
النزف البشرى والاقتصادى ، واليها اتجهت أنظار التجار والشركات
والمبشرون . وتكونت مراكز حضارية نشط فيها المبشرون فى نشر
المسيحية بينما انطوى الشمال المسلم الذى عجز الاستعمار عن اختراق
درعه الصلب على شاطئ البحر المتوسط ، فقام حوله بعملية الالتفاف
هذه .. وبدأت تتكون قوة جديدة فى الجنوب - تباين دينا وحضارة
عن الشمال ، وبينهما - كما سبق القول - الوسط الفقير مجال
التنازع .

٣ - الصورة فى السودان لم تكن كذلك : لأن المدخل الرئيسى
للسودان ظل المدخل الشمالى - بمدلوله الواسع بمائه ويابسه - منه
أتت المؤثرات العربية والاسلامية - وقد جاءت المؤثرات الأوربية ..
وكان وصول أوربا الى جنوب السودان « عبورا » من شمال السودان
لا التفافا حوله - مع ما دار من صراع حول أعالي النيل تأثر بالمدخل
الشرقية والغربية - ولم يكن التأثير الأوربى - على تباين فى حامله -
أول خطوات مشت فوق أرض الجنوب .. وانما كانت قبلا هناك
مؤثرات عربية واسلامية . بل ان الروابط الحضارية على طول النهر
من منابعه الى مصبه ، يمكن أن نردها الى عهد الحضارة
القديمة (١) .

(١) سلجمان (١٩٣٤) ومحاضرة فريزر التذكارية كلها دراسة لهذا الموضوع .

لم يكن السودان الجنوبي اذن أرضا مجهولة عندما جاء النفوذ الأوربي ، وانما أراد أن يجعله مجهولا بعد أن جاء .. وأراد أن تقطع روابط ، كان من الممكن بالتطور الطبيعي والتفاعل العالمى أن تنفى عنها تناقضات تاريخية ، وأن تحل محلها روابط وظيفية جديدة تجرف في طريقها علاقات بائدة .

من هنا اختلفت طبيعة التأثير الأوربي على جنوب السودان ، عما حدث في الأجزاء الجنوبية من غرب افريقية . فغرب افريقية كان التفاعل فيه ثنائيا بين الأوضاع التقليدية القديمة والأوربية الوافدة ، بينما في جنوب السودان كان ثلاثيا بين الأوضاع التقليدية القديمة ، والحضارة العربية الاسلامية ، والأوربية الوافدة .

٤ - وبينما كانت القطاعات الشمالية القارية في السودان الغربى شبه مجمدة أو في موقف الدفاع - الى حد بعيد - كانت في السودان متفاعلة تفلئ بالصراع ، باعتبارها الجبهة التى تهب عليها الرياح الحضارية العاصفة ، وتأتى منها النسمات الهادئة .. كان شأن السودان الشمالى فى هذا لا يختلف عن مصر والأقطار الساحلية من المغرب : مداخل جاءت منها المؤثرات الأوربية وجبهات دار فيها الصراع بين الاستعمار والتحرر . وبعبارة أخرى : اذا كانت الأجزاء الجنوبية فى غرب افريقية فى مهب الرياح الأوربية ، والأجزاء الشمالية فى متصرفها ، فقد كانت الأجزاء الشمالية من السودان فى مهب الرياح والأجزاء الجنوبية فى متصرفها .

٥ - يضاف الى هذا أن غرب افريقية فى النطاق الاوسط المتخلخل الذى يكاد أن يكون شقة حراما - أو مجال صراع - بين القطبين ، بينما العمران بين السودان الشمالى والجنوبى متصل .. وقد يكون الوضع مختلفا لو كانت السلالات الجنوبية تعيش جنوب السدود والشمالية شماله ، بحيث تكون السدود - وهى منطقة التخلخل السكانى هى المميّزة بين شمال و جنوب . ولكن هذه المنطقة - ونعنى

منطقة السودان - توجد في قلب الجنوب والتقاء السلالات مستمر على جبهة من سفوح أثيوبيا الى السودان الغربى دون أى فاصل . ذلك لان العوامل الجغرافية هنا تشجع على الالتقاء وواقع التأريخ يصدقه .. ولو أخذنا النيل الأبيض مثالا لوجدنا قبائل من الجعليين والكواهلة .. حتى خط عرض ١٣° شمالا وتتوغل جنوبا غربه (١) . وتبدأ أوطان النيلين من الدنكا شرق النهر والشلوك غربه (٢) . ولن نجد أى حائل طبيعي من مظاهر جيومورفولوجية أو تباين مناخى أو نباتى يمكن أن يتخذ ذريعة لتعميق أى تميز . واستعمال لفظ « تبدأ » هنا فيه كثير من التجاوز فان طبيعة مثل هذا اللقاء البشرى أن يكون كالاتشار العشائى الذى تنتقل به الصفات والثقافات اندماجا وتعايشا .

هناك انتشار عشائى لا يخطئه البحث بين قلب المعمور السودانى وأطرافه : تحمى به فى وطن البجاة فى الشرق - وهى المنطقة التى سعدت بالحياة والبحث فيها (٣) - كما تراه فى الشمال فى منطقة النيل النوبى وفى الغرب وفى الجنوب .. ولا شك فى أن قوة قلب السودان على دفع المؤثرات الحضارية تتأثر بعوامل متعددة من نظام المواصلات وسرعة التفاعل وكثرة الأضواء الخضراء على طريقها .. وقبل هذا وفوقه بتعميق الاحساس بكيان هو واقع ومصير .

من هنا تبدو بعض آثار التوزيعات الجغرافية للمداخل الحضارية وعلاقتها بالسودان « كأمة » .

اللقاء الحضارى :

وإذا ما مددنا أنظارنا وراء المداخل الشمالية - برية وبحرية -

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله شكل ١٢ ص ١٤٩ - القاهرة ١٩٥١ .

(٢) Butt, A.: The Nilotes of the Anglo-Egyptian Sudan and Uganda, London, (N.D.).

انظر الخريطة المرفقة بالكتاب مقارنة مع خريطة عوض (١٩٥١) .

(٣) كان موضوع رسالة الدكتوراه لكاتب هذا البحث « دلنا القاش » دراسة اقليمية وفى السودان الشرقى امضى فترة الدراسة الميدانية .

وجدنا أن السودان – بأغلب سكانه – جزء من عالم ضخم هو العالم العربي وما حوله من عالم اسلامى .

والوطن الاسلامى – بمدلوله الواسع – يكون قارة وسطى بين قارات العالم القديم (١) ويمثل الوطن العربى فيها منطقة القلب .

ومن طبيعة الوضع الجغرافى للسودان أنه كان ولا يزال جبهة من جهات العالم العربى والاسلامى .. ودول الأطراف بطبيعتها لهامشكلات تكاد أن تكون حتما تاريخيا ، ما لم يكن وراءها حد طبيعى صارم ، يبدو فى أروع صوره فى خط التقاء اليباس والماء .

فاذا ما كنا قد تحدثنا عن وسطية السودان الجغرافية فى أفريقية ، فله هنا وضع جغرافى آخر بالنسبة الى الكتلة الكبيرة . ولنأخذ مثلا موضحا : الحدود الجنوبية لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية هو بحر العرب وهو فى نفس الوقت حد عربى و اسلامى ، فهنا تتطابق الحدود الثلاثة .. ولك أن تقول الأربعة اذا أضفت اليها السلالات . مثل هذا تستطيع أن تقوله عن الجبهة البحرية للسودان على البحر الأحمر ، فهى جبهة ليست لها مشكلات مع جيران .

ولكن السودان بمعموره : النواة والامتدادات والأرخبيل البشرى فى الجنوب والخليج البشرى فى الشمال ، نجد فيه حدا عربيا ، وثانيا اسلاميا ، وثالثا سياسيا فى الجنوب . وهى ليست حدودا خطية وانما هى نمط من الانتشار الكوكبى الذى لا تستطيع – فى صرامة – ان تميزه بخط أو جبهة . والمنطقة التى تكاملت فيها هذه الجوانب من التطابق اللغوى والدينى تتمثل – أكثر ما تتمثل – فى الشمال . وهى مركز الثقل الحضارى فى السودان . ولكن لننظر الى المنطلقات التى تؤثر فيها فكريا والتى تتحكم فى اللقاء الحضارى :

١- هناك أولا سماحة الاسلام وكفالاته لحرية العقيدة « لا اكراه

Fernau, F. W. : Moslems on the March, p. 19, London, 1955. (١)

في الدين » (البقرة ٢٥٦) والنموذج المصرى واضح على سماحة التعايش بين الاسلام والمسيحية مع استبعاد التأثير الاستعمارى ، والايان بوحدة قومية .

٢ - وهناك نظرة الاسلام الى اللون « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣٠) وآيات القرآن صريحة في اعتبار الانسانية كلها أسرة واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » (النساء ١) (١) .

٣ - واذا ما كان هذا احترام الاسلام للانسان فهناك أيضا احترامه للأرض باعتبارها مجالا لنشاط الانسان . « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه ٥٥) وقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك : ١٥) .

هذه هى نظرة الاسلام الى الانسان والبيئة : العاملين الأساسيين فى أية دراسة جغرافية ، وأى تفاعل حضارى .

وبهذا الضوء تستطيع أن تقيم ما كتب البلدانىون العرب عن الشعوب ونظرتهم اليها . واذكر فى هذه المناسبة نصا للمسعودى فى مروج الذهب .. فهو يذكر ايمانهم بالرب الكبير ثم يقول « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ويرغبهم فى التقرب الى بارئهم ويعثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم من مضى من ملوكهم

(١) عبد العزيز كامل : الاسلام والتفرقة العنصرية - اليبونسكو . ١٩٧٠ باللغات العربية والانجليزية والفرنسية - سلسلة التفرقة العنصرية والفكر الحديث .

وأسلافهم (١) . فالمنهج الذى اتبعه البلدانويون المسلمون كان الى حد بعيد موضوعيا فيه بالعدل الذى أمرهم به دينهم .

أسوق ذلك لأبين أنه مع النهضة التى يمر بها السودان الآن سيعاد النظر فى كثير من المفاهيم التى وفدت الينا والكتب التى بين أيدينا ، وأحس أننا فى فجر « عصر نهضة » يعاد فيه النظر فى دراساتنا الانسانية فى ضوء من الحياة الجديدة .. وهذا بدوره سينعكس على المفاهيم التى تعيش بها . وهذه بدورها ستؤدى الى تكوين هيئات حضارية جديدة من التفاعل الخصب بين أبناء أفريقية وأرضهم على مستوى القارة وعلى مستوى الاحداث السياسية . ومن هنا ستحدد ملامح جديدة من الشخصية الافريقية تتكون من مجموع الملامح التى تبرز من التفاعل على مستوى الأقطار والأقاليم .

وقد بدت بعض خيوط هذا الغطاء الفكرى فى أفريقية .. ومن هذه الخيوط تنسج أقطارها أملا جديدا ، تحاول أن تنقله ، بالعلم والعقيدة والتعايش ، الى أرض الحقيقة .

خاتمة

قلت فى صدر هذا العرض : ان دراسة الشخصية الاقليمية عمل علمى وفنى وتطبيقى فى نفس الوقت .. واذا كان تقريرنا لأمر مضى ، فهو تقديرى لأمر مستقبل ، واذا كان يحمل عنصر التاريخ ، فليضمه الى الحاضر ، صاعدا الى المستقبل . وقد حاولت أن أبرز فى هذا العرض بعض « جوانب » أو « ملامح » من شخصية السودان تستقطب الكثير من الحقائق على أساس مقارن .. وكان المحور الرئيسى الذى دار حوله البحث هو : الوسطية الجغرافية للسودان ... هل أضم اليها فى ختام هذا الحديث « الوسطية السياسية » ودور السودان فى التوفيق والمساهمة فى القضايا العربية ؟ انها صورة من « شخصية السودان » على الصعيد العربى لها ما يعززها جغرافيا وتاريخيا .

(١) السعوى : مروج الذهب ١ : ٢٤٤ .